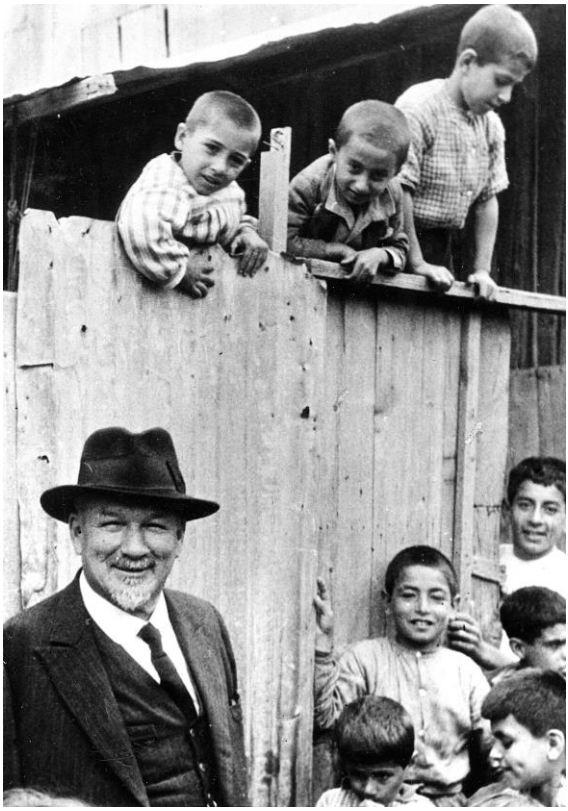

ياكوب كونتسلر

(١٨٧١ – ١٩٤٩)

شاهد على المحبة

في عصر الحقد والضغينة

مَاذَا فَعَلْتَ؟

صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ.

التكوين ٤:١٠

ما بين عامي ٣٠٣ – ٣٠٥ م قتل في عهد الإمبراطور الروماني ديوكلتيانوس أكثر من ألف مسيحي.

في عام ٣٩٠ م قتل أكثر من ألف شخص من سكان تسالونيكي الأبرياء.

في ٣٠ كانون الأول عام ١٠٦٦ م قتل أكثر من ثلاثة آلاف يهودي في مدينة غرناطة.

في عام ١٢٠٩ م قتل أكثر من سبعة آلاف من أتباع حركة الكاثار في مدينة بيزييه الفرنسية.

في عام ١٣٤٩ م قتل أكثر من ستة آلاف يهودي في مدن بازل وزيورخ وستراسبورغ وغيرها من المدن الأوروبية.

في عام ١٧٨٢ م قتل ستة وتسعين شخصا من الهنود الحمر في ولاية ديلاوير بمجزرة غنادينهوتن.

ما بين عامي ١٨٨٨ – ١٩٠٨ م قتل أكثر من مليون شخص في مستعمرة كونغو البلجيكية في أفريقيا.

ما بين عامي ١٩٠٤ – ١٩٠٦ م قتل أكثر من ستين ألف شخص من شعب الهيريرو في ناميبيا.

ابتداء من ٢٤ نيسان ١٩١٥ م ولمدة ثلاثة أعوام متواصلة قتل أكثر من مليون أرمني في الأناضول.

في عام ١٩٢٢ قاد ياكوب كونتسلر ما يقارب ثمانية آلاف طفل أرمني من الأطفال اليتامى عبر بادية الشام إلى لبنان. وقام هو وزوجته اليزابيث بإدارة دار للأيتام في بلدة غزير يتّسع لألف وأربعة وستين طفلا. فوجد الزوجان نفسيهما وقد أصبحا «الأب والأم كونتسلر». وعلّما الأطفال حرفة يدوية أصبحوا يمارسونها بكفاءة وإتقان. وأخذ كونتسلر دور الأب عندما أدركت فتياته اليانعات سن الزواج. وعلى سفوح بلدة غزير قام كونتسلر بفضل مساعدات مالية سويسرية ببناء مساكن للأرامل. وفي بيروت أسس دارا لرعاية المكفوفين والعجزة والمسنين «المركز الأرمني اللبناني لذوي الاحتياجات الخاصة». وفي عام ١٩٣٧ قام بفضل قوة عزيمته وتصميمه من جهة وبفضل التبرعات التي كان أصدقاؤه السويسريون يرسلونها إليه من جهة أخرى ببناء مصح للعناية بمرضى السل في قرية العزونية في هواء جبال لبنان النقي والمنعش. أما ابنته إيدا فقد ندرت حياتها بشكل كامل لخدمة لبنان وتزوجت من الشيخ الدرزي علم الدين.

وكان كونتسلر قد عمل في وقت سابق ممرضا لمدة عشرين عاما في مدينة أورفة أو «شانلي أورفا» الواقعة حاليا في تركيا. وفي عام ١٩١٥ شهد الجرائم البشعة التي وُصفت لاحقا بأنها أول عملية إبادة جماعية عرقية في العصر الحديث، حيث فُتكت الأعراض، وسُرقت الأموال، وتم التنكيل بالرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وترحيلهم، واغتصابهم، وقتلهم قتلا ممنهجا. وكانت الغالبية العظمى من الضحايا من الأرمن ولكن المسيحيين السريان والآراميين والمسلمين الأكراد كان لهم نصيب أيضا من عمليات «التطهير» العرقية للبلاد. ويقدّر عدد الضحايا بما يفوق المليون ضحية بكثير.

وفي أورفة استطاع ياكوب كونتسلر وزوجته وزملاؤه أن يخفّفوا من عذاب فئة من المظلومين. وفي غمار الفظائع والمآسي المتواترة قدّم المشفى الذي كان يديره كونتسلر الملجأ الآمن والرعاية الطبية للجرحى والمصدومين. وقد نجح ياكوب واليزابيث كونتسلر مدفوعان بروح المحبة الراسخة بالتغلب على المخاوف والوقوف إلى جانب المنكّل بهم، فيما كان غيرهم يتابع الأحداث بدون تأثر وبعدم مبالاة. وقد سجل كونتسلر الأحداث التي شهدها بأم عينيه بواقعية وموضوعية، فوصف أعمال السرقة والقتل المشينة التي نُفّذت دون رحمة وبشكل دنيء وسافل. وعلى الرغم من ذلك فهو لم يصدر الأحكام عشوائيا. وحتى يومنا هذا تعتبر كتاباته من أهم

المصادر التي تصف الأحداث آنذاك. وقد استشهدت بها المحامية المشهورة عالميا أمل علم الدين كلوني أثناء مرافعتها أمام المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان في ستراسبورغ في قضية أصبحت تشكل نقطة تحول هامة في مسألة الإبادة الجماعية للأرمن.

ويهدف هذا المعرض الذي يتناول حياة وإنجازات ياكوب كونتسلر إلى التذكير بأعمال المحبة العظيمة التي قام بها. فضلا عن ذلك يسعى إلى تجديد العلاقات القديمة بين سويسرا ولبنان. وهو يحمل بشارة مناقضة للنسيان وعدم المواجهة فحواها أن المحبة لا تسقط أبدا وأن أعمال الرحمة والشفقة لا تكون باطلا في الرب. (رسالة كورنثوس الأولى ١٣:٨ ، ١٥:٥٨)

المعرض يعرض أعمال ياكوب كونتسلر ضمن سياقين. الشرائط الحمراء تذكّر بأيدي الظلم والجور الملطَّخة بالدماء والتي مازالت تقوم بتدنيس طريق الإنسان حتى يومنا هذا. أما الأقوال الخمسة المأخوذة من الكتاب المقدس وأبيات الترتيلة فتستحضر شعاع النور الذي كان يضيء درب ياكوب كونتسلر ويقوده إلى أعمال المحبة التي قام بها.

تتخلل الأقمشة الكتانية التي تغطي الألواح الخشبية مقتبسات من كتاب ياكوب كونتسلر الذي مكّن عددا كبيرا من القرّاء من الاطّلاع على ما شهده كونتسلر أثناء إقامته في أورفة أثناء أيام الفاجعة المأساوية. وقد صدر الكتاب عام ١٩٢٣ باللغة الألمانية تحت عنوان Im Land des Blutes und der Tränen (في بلاد الدم والدموع). وصدرت الترجمة الانكليزية عام ٢٠٠٧ تحت نفس العنوان In the Land of Blood and Tears (في بلاد الدم والدموع).
وتغطي الأقمشة صورا فوتوغرافية قام أرمين فيغنر جندي الإسعافات الطبية الألماني بالتقاطها بشكل سرّي، وتمكّن من تهريبها خارج البلاد الخاضعة للحكم العثماني. وهي قد طبعت ذاكرتنا بصور الفاجعة المأساوية التي لحقت بالأرمن ولكنها لم تنشر بشكل كامل مع مخطوط المصور الفوتوغرافي إلا في عام ٢٠١١ حيث صدرت ككتاب بعنوان Die Austreibung des armenischen Volkes in die Wüste (ترحيل الشعب الأرمني إلى البادية).
هذا المعرض يروي قصة الطفل السويسري اليتيم الوالدين الذي كرّس حياته لإغاثة الأطفال اليتامى فأصبح إنسانا عظيما أنقذ أرواح الآلاف من البائسين والمظلومين. فلندعو الله أن يجعل قصة حياته مصدرا للشجاعة وحافزا على الإيمان بالله للكثيرين منا!

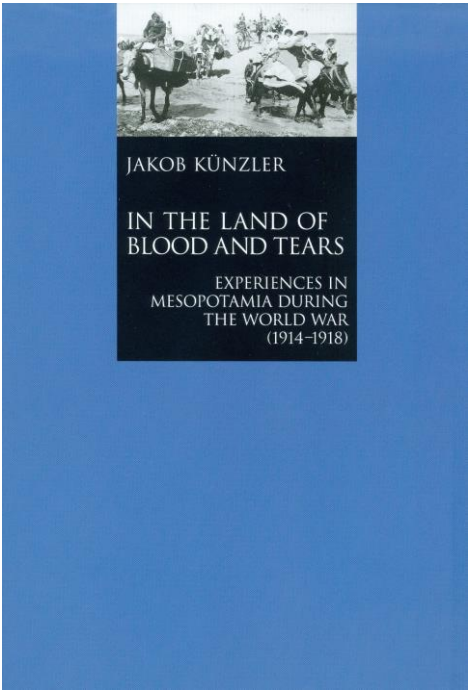
JAKOB KÜNZLER
IN THE LAND OF BLOOD AND TEARS
EXPERIENCES IN MESOPOTAMIA DURING THE WORLD WAR (1914–1918)

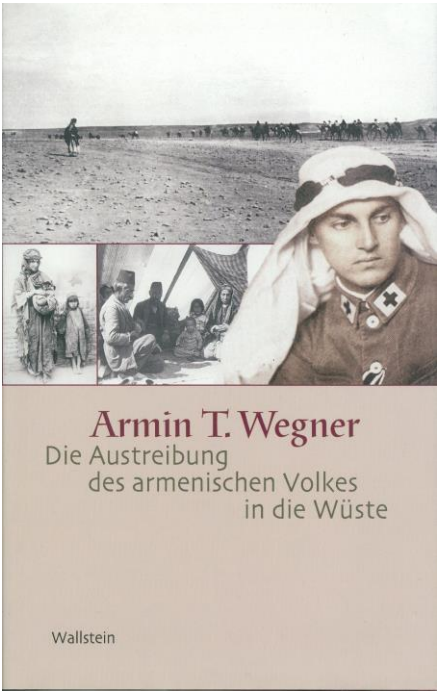
Armin T. Wegner
Die Austreibung des armenischen Volkes in die Wüste
Wallstein

في التاسع عشر من آب قام رجال درك أتراك بتفتيش البيوت في حيّ الأرمن بحثا عن الأرمن الهاربين من الخدمة العسكرية. فإذا بشخص يُطلق عليهم النار من كمين، فهوى أحدهم صريعا، وهرب اثنان وأبلغا مركز الدرك بما حدث. وما إن سمع عضوا اللجنة القادمان من القسطنطينية بالحادث، حتى صرخا بالجموع قائلين: «فليسقط الكفّار! ماذا تنتظرون بعد؟»

هذه الصرخات وقعت على أرض خصبة، فمن كان بحوزته سلاح شارك فورا في عملية إبادة المسيحيين، وأخذ على عاتقه التخلّص من أول شخص يصادفه كائنا من كان. أما من لم يكن مسلّحا فسارع إلى بيته لإحضار سلاح. ومن المشفى رأيت الأكراد يحثّون الخطى للوصول إلى حيّهم الذي يقع خارج المدينة كالمشفى الخاص بنا ويغادرون منازلهم بعد بضع لحظات متزوّدين بالأسلحة، ويهرعون إلى السوق للتخلّص من أكبر عدد ممكن من المسيحيين قبل غروب الشمس .

ولحسن الحظ ما إن سمع الأرمن طلقات الرصاص الأولى حتى أغلق أغلبهم دكاكينهم في السوق. كما أن بعض الأرمن دفعهم أصدقاؤهم المسلمون للعودة إلى بيوتهم فورا. ولكن للأسف لم يعلم جميع الأرمن بالخطر المُحدق بهم في الوقت المناسب. وبعضهم لقي حتفه وهو في طريقه إلى البيت. لقد كانوا يُلاحقون وكأنهم طرائد بشرية ليُقتلوا. يا لها من مجزرة رهيبة!

كان الخياط قيورق في دكانه في السوق مع عماله الأربعة غارقا في عمله، فلم يشعر بأي من الأعمال الرهيبة التي كان الأتراك والأكراد يُدبّرونها، فدكانه كانت تقع في أقصى السوق، وشراذم المتمردين يحتاجون وقتا حتى يصلونها. ولكن سرعان ما وصل الجلّادون. وقبل أن يعي قيورق الخطر المُحدق به، نحرت سكين حادة عنقه. ولم يتمكّن أحد من عماله من النجاة بنفسه. ولم يخطر على بال أحد منهم أن يدافع عن نفسه بالمقص الذي كان يحمله في يده. وتدفّقت الدماء من عتبة دكان الحلاق المسالمة. وقد رأيت بأمّ عيني بركة الدماء الراكدة في الشارع في اليوم التالي. أما جثث المقتولين الخمس فقد بقيت ملقاة على أرض الدكان الذي نُهب نهبا كاملا.

وبالقرب من مشفى البعثة التبشيرية كان يوجد بيت كبير شبيه بالقلعة المُحصّنة تملكه عائلة اللحام شيخو الكبيرة. فشيخو كان لديه سبعة أبناء بالغين تم ترحيل اثنين منهم إلى ديار بكر على طريق الموت. وفي ذلك المساء استهدف الرعاع الأكراد هذا البيت بعد أن عادوا من مجزرتهم الدموية في السوق ووسط المدينة، إلا أن البابين الضخمين والمغلقين بمتاريس قوية صدّا المهاجمين. وعلى الرغم من أن هؤلاء كانوا على علم من أن البيت خالٍ من الرجال ما عدا شيخو وشقيقه المسنَين، إلا أنهم كانوا يصرخون صراخا تُصَم له الآذان، حتى أننا كنا نسمعهم مرتعبين في المشفى، مطالبين الشيخَين بأن يُسلّما نفسيهما، ومتوعّدين بأن يغتصبوا في تلك الليلة ذاتها كل النساء القابعات في البيت. وكان يتخلّل صراخهم اللعنات والشتائم المليئة بالحقد والكراهية يقذفون بها في كل حدب وصوب.

وكان رجلا الدرك اللذان أرسلهما المتولّي بناءً على طلبي لحماية المشفى قد وصلا إلى الحي لتوهما، وكان من المتوقع أن يرافقهما المزيد من رجال الدرك. فطلبت منهم جميعا أن يقوموا بتهدئة الأوضاع. وبالفعل فقد فرقوا الجموع المتعطشة للدماء ولإشباع نزواتها الدنيئة.

وفي صباح اليوم التالي وجدت الشيخ شيخو مقتولا أمام بيته. لقد ضحّى بنفسه من أجل عائلته على أمل إنقاذ النساء والأطفال. أما أخوه الذي سارع إلى الاختباء فقد سحبته بنفسي من مخبأه الضيق في اليوم التالي.

وحينئذ أمر ضابطان من ضباط تركيا الفتاة بإعدام أفراد الكتيبة الذين كان قد نُزع منهم السلاح وسُخِّروا للعمل في إنشاء ومد الطرق والخطوط الحديدية. وقد استطاع أحدهم من الأرمن أن ينجو بحياته. وسأدعه يقصّ عليكم قصّته بنفسه:

«منذ عدة أسابيع كنت أعمل مع حوالي أربعمائة من أبناء قومي في الكتيبة المُكلّفة بإنجاز أعمال تمهيد طريق قاره كوبري. وفي مساء الخامس عشر من آب نودي على مائة وثمانين منا بأسمائهم للتأهب للانطلاق ليلا، إذ كان لا بدّ من مواصلة أعمال تمهيد جزء من الطريق يقع على بعد عدة ساعات من معسكرنا لجعله قابلا لمرور المدافع. وبعد تناول طعام العشاء أُمرنا بأن نعزف الموسيقى. وكثيرا ما كنا نُؤمر بذلك ما كان يُدخل السعادة والسرور إلى قلوبنا أثناء خدمتنا العسكرية. في الساعة التاسعة مساء نُفخ البوق مُعلنا عن حلول وقت الراحة. وبعد ساعتين من ذلك غادرنا المعسكر. مشينا ساعتين متواصلتين ثم توقّفنا للاستراحة حيث سُمح لنا بأن ندخن سيجارة. حتى هذه اللحظة لم يكن لدينا أدنى فكرة عما كان ينتظرنا.

ما إن مضت ربع ساعة على استراحتنا حتى شارف علينا حوالي أربعين دركيا ممتطين الجياد قادمين إلينا من المدينة. وكان يتبعهم خمسة عشر رجلا أرمنيا مكبّلين بالسلاسل. ما لبث الفرسان أن أحاطوا بنا وأمروا بتكبيلنا بالسلاسل. عندئذ أدركنا ما ينتظرنا من أهوال.

بقينا في أغلالنا حتى ما بعد ظهر اليوم التالي، وفجأة تعالى صوت أحدهم مدويا: «وقوف!». ثم سار بنا رجال الدرك تحت حماية مشدّدة حتى وصلنا إلى مشارف القرية، فإذا بنا نرى أكواما من الملابس المكدّسة التي عرفنا حالا أنها تعود لرفاقنا. عندئذ أمرنا رجال الدرك أن نخلع كل ملابسنا ما عدا القميص الداخلي، وقيّدونا بحبال مشبعة بالدماء اثنين اثنين. وما إن انتهوا من ذلك حتى أمرونا بالمسير. فسرنا عدة دقائق مارّين بأكوام من جثث رفاقنا المقتولين التي كانت بعضها مازالت ترتعش رعشة الموت الأخيرة. ثم قادونا إلى حافة هاوية صخرية وأخذوا يشتموننا هم والأتراك الذين انضموا إلينا من المدينة قائلين إننا«خونة للوطن!». ثم فكّوا الحبال عن يدَي الرجلَين المكبّلَين في الصف الأول وأجبروهما الواحد تلو الآخر على إلقاء نفسيهما في الهاوية بعد أن يمرّا من بين رجلَين من رجال الدرك يحمل كل منهما حربة طويلة يغرزها في جسد ضحيته. عندما جاء دوري كنت قد تمكّنت من التحرّر من الحبل الذي يكبّلني

إلى رفيقي دون أن يلاحظني أحد. وعندما صدر الأمر بأن نتقدم أمسكت بحجر كبير ورميته على أحد الدركيَين فأصابه في صدره وخرّ على الأرض متألّما. لم أنتظر ثانية واحدة، كي لا يطعنني الدركي الآخر بالحربة، بل سارعت في القفز من الحافة الصخرية دون أن أصاب بأي جرح. ما برح أن أطلق دركي طلقة نارية ورائي، ولكنها لم تُصبني، وسرعان ما اختبأت تحت الحافة الصخرية الناتئة التي اتخذتها ملجأ لبعض الوقت .

بعد أن ألقى جميع رفاقي، وعددهم ستون رجلا، بأنفسهم في الهاوية مُجبرين، جاء رجال الدرك والأتراك من الأعلى إلى الأسفل ليتأكّدوا من أن الجميع قد لقوا مصرعهم. أما أنا فرميت بنفسي على وجهي وتظاهرت بالموت. وعندما دفعني أحدهم بقدمه قال رجل من رجال الدرك: «أليس هذا هو ابن الكلب الذي حاول أن ينجو بنفسه؟» وما لبث أن أطلق النار علي، فشعرت بسيل من دم دافئ ينساب على ظهري .

وأخيرا عادت عصابة القتلة أدراجها. ولم يمض وقت طويل حتى جاء رجل كردي وأخذ يهتف عاليا: «بيدو، بيدو!». كان بيدو أرمنيا منا وكان لا يزال على قيد الحياة، فعندما سمع الهتاف أخذ يتحرّك قليلا، إلا أن الكردي همس في أذنه بأن يبقى مختبأ وراء صخرة كبيرة حتى حلول الليل، ففي ضوء النهار لا يمكنه أن يساعده. وعلى الرغم من أن بيدو كان مصابا بجروح بليغة إلا أن الكردي الذي كان زميله في العمل كان مصرّا على إنقاذه. وللأسف لا أعرف إن تمكّن من إنقاذه أم لا. فبعد أن غادر الرجل الكردي المكان نجحت في الوقوف على قدمي بعد عدة محاولات، واكتشفت أنه قد تبقّى منا خمسة عشر رجلا على قيد الحياة كانوا على الرغم من إصاباتهم البليغة قادرين على الحركة. ثم تشاورنا لنقرّر ما العمل، فاقترحت أن نعود إلى المدينة ليلا، إلا أن الأغلبية لم تسعفهم القوة اللازمة لذلك. وهكذا غادرنا ثلاثة رجال فقط المكان ليلا. وفي بستان قريب وجدنا بطيخا فأكلنا واستعدنا شيئا من قوتنا .

ثم مشينا عدة ساعات ليلا، وفجأة سمعنا أصواتا صادرة عن حشد من الناس. وأخذت الأصوات تقترب منا شيئا فشيئا، فاختبأنا في كرم عنب طلبا للنجاة. ولكن من كان هؤلاء الناس الذين يقتربون منا؟ يا للعجب! لقد استطعنا التعرف عليهم أخيرا: كانوا عشرين من رفاقنا

الذين خدموا في نفس الكتيبة، وكانوا قد بقوا أول أمس في قاره كوبري. لقد قرّروا صدفة أن يسلكوا نفس الطريق الذي سلكناه.

لم أستطع أن أواصل المشي في تلك الليلة. كما أن الرجلين اللذين كانا برفقتي خارت قواهما نهائيا. ولذلك قرّرنا أن نختبئ في كرم عنب تحت العرائش، وبقينا هناك حتى اليوم التالي حيث واصلنا مسيرنا ليلا حتى بلغنا أورفة، وكان ذلك في التاسع عشر من آب. وقد رأينا جثث قتلى ملقاة على الطريق، فاستنتجنا أنه قد قامت هنا أيضا مجزرة. وعندما وصلت إلى بيتي وقفت طويلا أمامه وأنا أقرع الباب وأنادي زوجتي. أخيرا تعرّفت زوجتي على صوتي وفتحت الباب.» هذا ما قصّه علي الرجل الأرمني.

وماذا عن ترحيل هؤلاء المساكين الذين كان قدرهم الموت؟ هل يستطيع قلم أن يصف معاناتهم؟ كانت النساء تمتنعن عن الخروج من بيوتهن، ورجال الدرك يُجبرونهن على مغادرتها بضربات السياط. إحدى النساء ألقت بنفسها على أرض الشارع، وامتنعت عن الوقوف على قدميها. فصدر أمر بقتلها فورا في مكانها. فأخذ أحد رجال الدرك يخزها بحربة بندقيته، إلا أنها لم تتزحزح من مكانها، ومن جديد أخذ الدركي يطعنها طعنات تجرحها ولا تميتها فتدفق الدم من جروحها. وفي النهاية اُضطرّت أن تقف على قدميها وأن تمشي .

وهناك امرأة فقدت عقلها فكانت تمشي سافرة الوجه منتثرة الشعر وهي تغني وتضحك .

وهناك امرأة أخرى حاولت الهرب من خلال زقاق، إلا أن أحد رجال الدرك شاهدها فلحق بها وأطلق عليها طلقة نارية أردتها قتيلة وخلصتها من عذاباتها، فكانت نهايتها أرحم من نهاية قريناتها.

وكان العديد من الرجال المسلمين يقفون أمام مخارج المدينة، وقد لفتت بعض النساء الأرمنيات أنظارهم. فقام بعضهم باقتيادهن واختفوا معهن عن الأنظار.

وكانت فتاة أرمنية تمشي ضمن الجموع وهي ابنة تاجر تبلغ أربعة عشر عاما. فإذا برجل تركي يلحقها ويقبض على يدها، ولكنها أخذت تدافع عن نفسها وتقاومه فمن الأحبّ إليها أن تموت في الصحراء على أن تُجبر على العيش في بيت عائلة مسلمة. وفي هذه الأثناء اقترب دركي منهما. لم يكن يريد حقا أن يساعد الرجل التركي، ولكن عندما شاهد قطعة النقود الذهبية تلمع في يد التركي رضي وتركه يأخذ الفتاة التي كانت تحاول الدفاع عن نفسها بشراسة. لقد كان ينتظرها حتما قدر مخيف بين حريم الرجل.

وقد سبق لي أن وصفتُ الويلات التي حلّت بهؤلاء المساكين على طريق الترحيل. ومما لا شك فيه أنه كان أمرا متعمّدا ومخططا له أن يلقى سكان أورفة المرحّلون جميعهم حتفهم في الصحراء. ولذلك كانوا يُقتادون من مكان إلى آخر حتى يفنوا جميعهم عن بكرة أبيهم، ولا يتبقى منهم أي شخص يستدعي الترحيل.

وعندما أوشكت عملية الترحيل على الانتهاء جاء رجال الدرك في نفس اليوم ونفس الساعة إلى بيوتنا واقتادوا كل الأشخاص الذين كانوا تحت حمايتنا، وكنا نتأمل أن يُغَضّ النظر عنهم. وبينما كانت بيوتنا تُفتّش كانت حشود المرحّلين تمرّ في الشوارع. وكنت أظنّ أن كل من آويته تحت سقف بيتي قد غادره، ففتحت دون أدنى علم باب خزانة الملابس بحضور الدركي المكلّف بتفتيش بيتي، فإذا بفتاة أرمنية تقفز من الخزانة. كان موقفا مضحكا، حتى الفتاة الأرمنية أخذت بالضحك. ولكن طبعا، أُجبرت هي أيضا على الرحيل.

وكان ابني الصغير ذو التسع سنوات يقف خارجا ويترجى الدركي والدموع تنهمر من عينيه كي يُخلي سبيل من كان يدعوها «جدتي»، فلماذا يجب عليها الرحيل؟ وجعل يُقبّل يدَي رئيس الدرك الذي تأثر بدوره وكادت عيناه تدمعان. ولكن على الرغم من ذلك لم تغيّر الدموع والتوسّلات شيئا، وأُجبرت المرأة العجوز على الرحيل أيضا. ولكن من هي هذه الجدة؟ إنها أرملة عجوز تبلغ الخامسة والستين من العمر، كانت قد بدأت العمل عندنا قبل ستة عشر عاما، ولكنها لم تكن بالنسبة لأفراد عائلتي مجرد خادمة بل بمثابة الجدة. وهي أيضا كانت تُكِنُّ لأبنائي مشاعر الحبّ والحنان وكأنهم أحفادها.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت زوجتي إلى قائد الدرك لتنتزع منه على الأقل أمرا بالموافقة على بقاء هذه المرأة العجوز. وكان هذا القائد قد انتقى أجمل الفتيات من معسكرات الاعتقال، وأهدى من لم يستطع الاحتفاظ بهن إلى ضباطه. فأجابها: «أعطني ابنتها وخُذيها!». ولكن اتّخاذ مثل هذا الحكم يخرج طبعا عن نطاق سلطة زوجتي، كما أن ابنة المرأة العجوز كانت قد اقتيدت إلى معسكر الاعتقال خارج المدينة.

وعندما بدأ ترحيل النساء أخذت أواسي الجدّة قائلا إنهن يُقتدن إلى قسم الدرك لإجراء التحقيق معهن فقط، وسيُسمح لهن بالعودة في الغد. ولكن مريم العجوز و«الجدة» الطيبة أجابت: «اوغلوم داها كلميم!» أي: «يا ابني، لن أعود أبدا!» حقا لقد كانت تعرف الأتراك أفضل مني.

ولكن مريم العجوز عادت في نفس يوم ترحيلها ليلا إلى أورفة. لقد تمكّنت مع بعض النساء من استئجار عربة بحصان بفضل المال الذي كان بحوزتهن. وقد أنزلهن سائق العربة المرتشي بالقرب من المدينة. وفي اليوم التالي حضرت مريم وابنتها إلى بيتي قبل الظهر، ولكن ما إن

وصلتا حتى جاء رجال الدرك للقبض عليهما. فهربت المرأتان من الباب الخلفي، واختبأتا في كوخ صغير في كرم عنب قريب. ولكن بما أن رجال الدرك رأوهما وهما يدخلان بيتنا، قلبوا البيت رأسا على عقب، ثم أخذوا بتفتيش البساتين القريبة، فوجدوهما. وللأسف لم تعودا مرة ثالثة.

أثناء مجزرة عام ١٩١٥ أُجبر أهلي على الرحيل من بلدة ديوريغي إلى مدينة سيواس وهناك أحاطتنا المبشرة الأمريكية الآنسة بيوور بحمايتها. وكانت والدتي تسعى جاهدة كي نحظى بتعليم محترم في مدرسة جيدة. ولذلك فقد أرسلتنا جميعا، وكنا سبعة أطفال، للالتحاق بمدرسة البعثة التبشيرية. وقد درست على يد الأمريكان في مدينة خربوط لأصبح معلمة. وأخي الوحيد أصبح صيدلانيا. وكنا عائلة كبيرة إذ كان لدينا الكثير من الأقارب. وقد أُجبر كل أفراد عائلتنا فضلا عن الآلاف من أبناء ملتنا على الرحيل في موكب كانت تترقّبه فاجعة مأساوية.

مضت الأيام الأولى من عملية الترحيل بخير، حيث كان يرافقنا مبشرون أمريكان. ولكن ما لبثت الحكومة التركية أن أبعدتهم. وما إن غادرونا حتى بدأت معاناتنا الكبيرة. ابتدؤوا باعتقال الرجال وقاموا بتعذيبهم تعذيبا فظيعا أمام أعيننا، وغالبا ما كانوا يُعدمونهم مستخدمين طرائقا تجعلهم يموتون موتا بطيئا. كما ألقَوا بالآلاف من النساء والأطفال في نهر كيرك غوز ليموتوا غرقا.

وبعد ذلك عبرنا جبالا يكاد من المستحيل أن تطأها قدم إنسان. وطوال أيام لم نحصل على كسرة خبز أو شربة ماء. وقد فقدنا أكبر عدد من الأرواح على ضفّة نهر الفرات بالقرب من بلدة سامسات حيث غرق أكثر من عشرة آلاف شخص. ثم انتظرنا على ضفة النهر بعد عبوره أسبوعا. وفي هذه الأثناء سُرق مالنا وهُتكت أعراض فتياتنا. لقد حلّت الظلمة في قلوبنا وفقدنا الأمل جميعا حتى من كان منا شديد الورع والإيمان. كان من يحمل نقودا يتمكن من شراء عفّته ولكن الآن وقد نفذت النقود فلم يعد أحد يستطع أن يحول دون الفتك بعرضه. وبما أنه كان من المستحيل تبديل الملابس أو الاستحمام فقد طغت علينا الأوساخ والروائح الكريهة. وكان كثير منا قد أصيبوا بضربة سيف أو طعنة حربة، ولكن جروحهم لم تُعالج. وهكذا كنت ترى الديدان تنخر في أجساد هؤلاء المساكين حتى أن المرء لم يعد قادرا على النظر إليهم. ولكن كان قد اعترانا نوع غريب من عدم الإحساس فلم نعد نتأثر بأي شيء.

ثم تابعنا طريقنا ومررنا ببئر مليئة بجثث آدميين متفسخة. وعندما وصلنا إلى البئر التالي رموا بنا فيه. وبما أن البئر كانت ضحلة المياه وقد تكدّست في قعرها الجثث، لم يلق كل مَن رُمي به حتفه. ثم أخذوا يقذفوننا بالحجارة من الأعلى. فمن أصابه حجر ارتاح من العذاب. للأسف

لم يُصبني حجر! أختي أيضا بقيت على قيد الحياة في هذا الجحيم. وأمضينا الليلة في قاع البئر نتنشّق روائح النتن الفظيعة. لقد دعونا الله ألف مرة كي يأخذ روحينا!

وفي اليوم التالي لم يظهر أحد ليواصل عمله الخيري ويقذف الحجارة إلى أعماق البئر، ففكّرنا ماذا يمكننا أن نفعل. وخطر على بالنا أن قليلا من النقود يمكن أن تنقذنا أو تفسح لنا طريق عذاب جديد. وجدنا بعض النقود مخبأة في الجثث. كنا نعلم أن المكان المفضّل لتخبئتها هو الشعر المشعّث. وهكذا جمعنا بعض الليرات العثمانية. وعندما أطلّ أحد الأكراد برأسه من الأعلى جعلنا نقذف بالليرات بين أيدينا لترن رنينا عاليا. لقد فهم الكردي فورا حاجتنا، وسحبنا أنا وأختي من البئر، وأخذ النقود كأجر على تعبه. وبذلك نجونا مؤقتا من جهنم، وأخذنا نستنشق الهواء النقي بنهم وشغف كبيرين.

ثم مشينا في الجبال تائهين على وجوهنا. وفي أحد الليالي اختفت أختي. لم أعرف ماذا حدث لها، فبقيت وحدي. إلى أين أذهب وإلى من ألتجئ؟ وأخيرا رأيت راعي غنم رجوته أن يدلّني على الطريق المؤدي إلى أقرب مدينة. ولكنه أجابني بأنه لا توجد في هذه النواحي أي مدينة ولكن موكب المرحلين غير بعيد من هنا. ثم دلّني على الطريق إلى هناك. مالبثت أن وجدت فلول المرحّلين. لقد كانوا من أبناء جلدتي، وقد تجمّعوا في هذا المكان الذي يدعى محمد خان.

ومن هناك اصطحبني رجل مسلم ميسور الحال إلى أورفة. كان يدعى محمد خليل وكان من أغنياء المدينة. وعندما بلغنا المدينة مرضت مرضا شديدا. ولما لم تتحسن حالي أرسلني إلى مشفى البعثة التبشيرية. وبما أنه لم يتبقَّ مكان شاغر هناك، بعثوا بي إلى باحة الكنيسة السريانية، حيث كنا أنا ومن مثلي ننتظر الموت على أحرّ من الجمر. ثم نصحتني إحدى النساء بأن ألجأ إلى عائلة كونتسلر التي تقدّم يد العون إلى جميع الأرمن. فذهبت إلى بيت العائلة الذي لم يكن يبعد أكثر من ربع ساعة من الكنيسة. ولكن الطريق استغرق معي ثلاث ساعات كاملة بسبب ضعفي الشديد. وعندما بلغت البيت وأنا أكاد أهذي من الحمى قدموا لي اللباس والحماية والمساعدة والرعاية الصحية وبذلك انتهت عذاباتي الرهيبة. تعافيت شيئا فشيئا وعندما أسس السيد كونتسلر دار الأيتام عقب إعلان الهدنة، أصبحت معلمة فيه أعلّم من تبقّى من أبناء قومي.

ألماست تاماسيان

في العاشر من تموز عام ١٩١٥ تم ترحيلي من مسقط رأسي خربوط مع حوالي ألفين من الرجال والنساء والأطفال. كان زوجي يعيش في أمريكا. وقد تمكّنت من أخذ بعض المال والملابس إضافة إلى بعض الأغطية والفرش التي حمّلتها على ظهر دابة. كما أُجبرت ابنتاي اللتان تبلغان الحادية عشرة والثانية عشرة من العمر على الرحيل أيضا.

وفي المنطقة المحيطة بملطية توقّفنا كي تلتحق بنا جموع المرحلين من أرضروم و سيواس. ثم تابعنا المسير جنوبا عبر جبال طوروس ذات السفوح الشديدة الانحدار. وكثيرا ما كنا نُضطرّ إلى تسلّق المنحدرات الصخرية على أيدينا وأرجلنا. وأثناء ذلك فقدنا الكثير من الأطفال والعجائز بسبب الإعياء الجسدي الذي لا يُحتمل، فبقيت جثثهم ملقاة على الأرض في المكان الذي انهاروا فيه ليصبحوا فريسة ثمينة للحيوانات الضارية. وكنا قد تخلّصنا من جميع أمتعتنا فمن اقتاد معه دابة عند مغادرة منزله اضطرّ لإعادتها.

وأثناء عبور الهضاب المرتفعة الواقعة ما بين ملطية وأديامان قام الأكراد القاطنون في المنطقة بنهب مقتنياتنا وقتل رجالنا. قادوهم إلى مكان في منأى عنا وأعدموهم. وكدنا أن نُقدم على قتل أنفسنا أيضا، ولكن ماذا سيحدث لأطفالنا؟ وفي الطريق إلى سامسات فقدنا أغلب النساء الشابات والفتيات، فالأكراد كانوا يجيئون ويقتادون من أعجبهم من النساء والفتيات.

وبعد أن عبرنا النهر لنصل إلى أراضي أورفة بلغت عذاباتنا أوجها، فلم نكن نحصل على الماء إلا إذا دفعنا ثمنه ذهبا. وكانوا يُبعدوننا عن آبار المياه مُتهاوين علينا بالضربات بأعقاب البنادق. وعند ينبوع غزير المياه، حيث بقينا عدة أيام للاستراحة، سلبونا كل نقودنا ومجوهراتنا. ولما لم يتبقَّ لدينا شيء ثمين اقتادونا إلى صحراء قاحلة. وهناك أحاط بنا جمع من الأكراد وأجبرونا على خلع ملابسنا لنصبح عراة كما أنجبتنا أمّنا، واستولوا على كل ما كان له قيمة. ولما خلعنا ملابسنا تبيَّن أن بعض الغلمان قد ارتدوا ملابس النساء واندسّوا بيننا. فقام الأكراد فورا بقتلهم وتقطيع أجسادهم. ثم اقتادوا حوالي ألفي فتاة وامرأة عارية إلى مكان ضيق. حينئذ بدأت الفاجعة الكبرى. لقد أخذوا يطلقون النار علينا من كل حدب وصوب وبدأنا نتدافع تدافعا فظيعا. من كان يقف على الحافة أصابه طلق ناري، ومن كان في الوسط فقد حياته مُختنقا.

أما أنا فنجوت من الموت بأعجوبة، أثناء المعمعة إذا بي أنقاد إلى قمة أكوام من الجثث، ولم أستطع أن أسحب ابنتيَّ إلى ذلك المكان المرتفع شيئا ما إلا بعد جهد جهيد. وكان جسدهما

أزرق اللون. وعندما غادر الأكراد لم يتبقَّ منا على قيد الحياة إلا بضع مئات. وفي اليوم التالي اضطررنا إلى متابعة طريقنا فرائحة النتن والتفسّخ كانت لا تطاق. وكانت ابنتي تصرخان ليلا ونهارا: «مايريك هاز، مايريك هاز!» أي: «أماه، كسرة خبز، أماه، كسرة خبز!» وعندما مرّ بنا بعض الأكراد الممتطين الجياد رجوتهم أن يأخذوا ابنتيَّ الاثنتَين معهما وأوصيتهم بهما لعلهما يبقيا في رعاية الله ورعايتهم. فأخذوهما، ولا أدري ماذا حدث معهما إذ لم أرهما ثانية. وعندما غادراني لم أستطع البكاء فقد كانت دموعي قد جفّت. كنت أتمنى شيئا واحدا وهو الموت عاجلا.

وبين الحين والآخر كنت أقوم ببعض الخطوات إلى الأمام بمرافقة بعض النساء اللواتي كنَّ يتمنّين الموت مثلي. وكانت أشعة شمس بلاد الرافدين الحارقة في شهر آب تكوي أجسادنا العارية. فحفرنا بأيدينا في الأرض المحروثة الرطبة حُفَرا نختبئ فيها من قيظ الظهر بأن نطمر أنفسنا فيها بالتراب. وفي الليل كنا نُضطرّ لاستخدام هذه الحفر أيضا لأن درجات الحرارة كانت تنخفض جدا، ويصبح الجو شديد البرودة، فكانت الأرض تحمينا من البرد. وأخيرا وصلنا إلى قرية مسيحية قريبة من أورفة ونحن في حالة مزرية يُرثى لها حيث كنا مصابين بحروق شديدة واسعة. وهناك مُنحنا خبزا وماء وبعض الملابس. وقد حصلت على قميص ولّادي كان قصيرا جدا ولكنه غطّى عورتي بشكل كافٍ بعد ستة عشر يوما من العراء.

بقينا في تلك القرية مدة قصيرة جدا، فما لبث أن جاء رجال الدرك، وجمّعونا، ثم ساروا بنا في نفس اليوم إلى معسكر الاعتقال في أورفة. ولكن إلى أين الذهاب الآن؟ كنت أودّ أن أذهب إلى المشفى الألماني ولكنني لم أجده. وإذا برجل تركي يُمسكنني ويجرّني إلى بيته. ولكن سرعان ما أُصبتُ بمرض شديد، فأخذني ذلك التركي بنفسه إلى مشفى البعثة التبشيرية. وهناك استعدت عافيتي. وقد نجوت من الالتحاق بموكب المرحّلين من سكان أورفة بسبب إصابتي بحمى شديدة يوم جاء رجال الدرك ليقتادوا الأرمن من المشفى. وعندما تعافيت أخذت أعمل طباخة في بيت السيد كونتسلر. وقد احتفظت بالقميص الولادي الذي سترت به عورتي، وسأحتفظ به كقطعة مقدسة كي أريه لزوجي إذا قدر لي الله أن أراه يوما من الأيام .

ويكسا بيدروسيان

في شهر آب عام ١٩١٩ كتبت لي هذه المرأة رسالة من حلب تخبرني فيها أن زوجها قد توفّي. وقد بحثنا طويلا عن ابنتيها، ولكننا لم نعثر لهما على أثر.

كان لدى الكثير من الأرمن أصدقاء بين المسلمين. هؤلاء لم يكونوا عديمي الشفقة والرحمة، ولم يرضَوا أن يغضّوا الطرف ويشتركوا مع الحكومة في عملية الإبادة الجماعية لهذا الشعب . كان يختفي نساء وأطفال أرمن يوميا من معسكر الاعتقال. هؤلاء لم يلقَوا حتفهم، وإنما وجدوا مخبأ عند أحد هؤلاء المسلمين الذين تملأ قلبهم الرحمة والإنسانية. أما الحكومة التي كانت على علم بعمليات التهريب هذه، فكانت تخشى أن ينجو بذلك الكثير من الأرمن، فأعلنت أن كل من يأوي أرمنيا يجازف بأن يتم ترحيله هو أيضا.

كما أن المحكمة العسكرية طالبت رئيس القضاة في المدينة بأن يسلّم المسيحيين الأرمن الذي كان يأويهم تحت سقف بيته. وكان هذا الرجل قد نُقل في حزيران عام ١٩١٥ من مدينة أرزينجان إلى أورفة كعقاب له على معارضته لعمليات ترحيل الأرمن هناك. وفي ذلك الوقت العصيب ترأس القاضي في أورفة تجمّعا مناهضا للأعمال الوحشية ضد الأرمن. وآوى في بيته عددا من النساء الأرمنيات. إلا أن الجنرال استدعاه مباشرة بعد ذلك التجمّع وهدّده قائلا: «من تظنّ نفسك حتى تتجرأ وتعمل ضد الحكومة المركزية، وتطالب في التجمعات بالرأفة بالأرمن، وتعارض أوامري، وتخبّئ نساء أرمنيات تحت سقف بيتك؟ إن لم ترتدع فورا فسوف نجعلك تدرك بأننا نمتلك السلطة الكافية التي تعيدك إلى رشدك.»

ولم ينتظر الجنرال الجواب بل أومأ برأسه لرئيس القضاة مشيرا إليه أن ينصرف. وهنا يجب التنويه إلى أن رئيس القضاة أو منصب القاضي هو ثاني أكبر منصب في المدينة.

وما إن وصل القاضي إلى بيته حتى جاء رجال الدرك ينفّذون أوامر الجنرال ويقتادون النساء الأرمنيات. ولكن بعد انقضاء أيام معدودة عاد القاضي إلى عادته القديمة في إيواء اللاجئين تحت سقف بيته ضاربا بعرض الحائط أوامر الجنرال.

ولم أتعرف في حياتي كلّها على رجل مسلم يتمتّع بمثل هذه النفس الكريمة كهذا القاضي. ولكن يجب القول أيضا إنني لم أتقرّب إلى شخص مسلم أبدا إلى هذا الحدّ. نعم، لقد افترقنا وكانت تجمعنا صداقة حميمة لا بل أخوّة صادقة.

كان الناس يسخرون من قاضي أورفة ويدعونه «أرمني باباسى» أي قسيس الأرمن لأنه كان دائم السعي للتخفيف من بؤس الأرمن. ولكنه كان راضيا بهذا اللقب.

وقد تجرّأت أيضا المبشرة الدانماركية الآنسة جيبه التي كانت تعمل في البعثة التبشيرية الألمانية للشرق على تخبئة سبعة رجال تحت سقف بيتها. وعلى الرغم من أن رجال الدرك داهموا بيتها ثلاث مرات وفتشوه تفتيشا دقيقا إلا أنهم لم يجدوا أيا من الرجال السبعة. ومما لا شكّ فيه أن هذه المرأة التي أنجدت غيرها قد حمّلت نفسها ما يفوق طاقتها حيث كانت تعيش في قلق دائم مستمر مما أدى إلى إصابتها بمرض عصبي. واضطرّت للعلاج لمدة ستة أشهر تقريبا. إن مرضها كان حتما نتيجة لتلك الأيام الرهيبة!

وأثناء عملية تفتيش منزلنا في صيف عام ١٩١٦ ألقى رجال الدرك القبض على خادمنا العربي ليُجبروه على البوح بما يعرفه. لقد ضربوه ضربا مبرّحا. ولكن هذا الرجل الشجاع لم يبح بكلمة واحدة مع أنه كان على علم بكل صغيرة وكبيرة تجري في بيتنا. ولتعلم أنه هو أيضا كان مسلما. فتحية لمثل هذا الإخلاص!

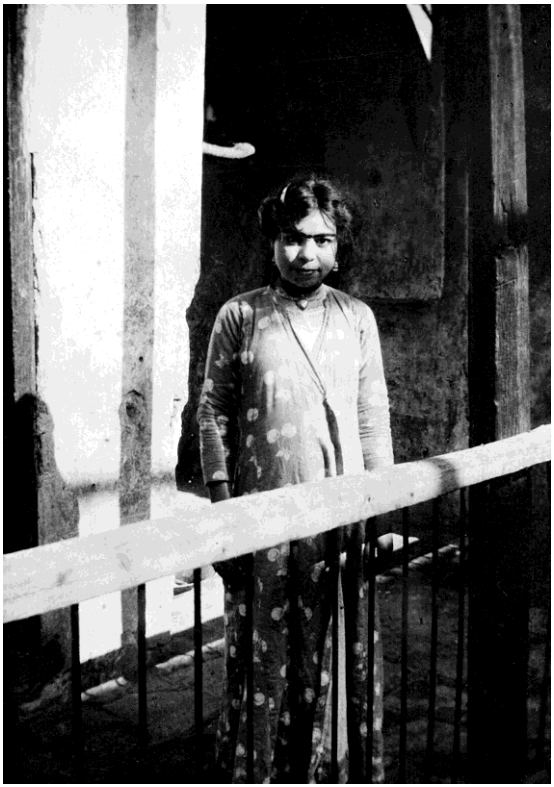

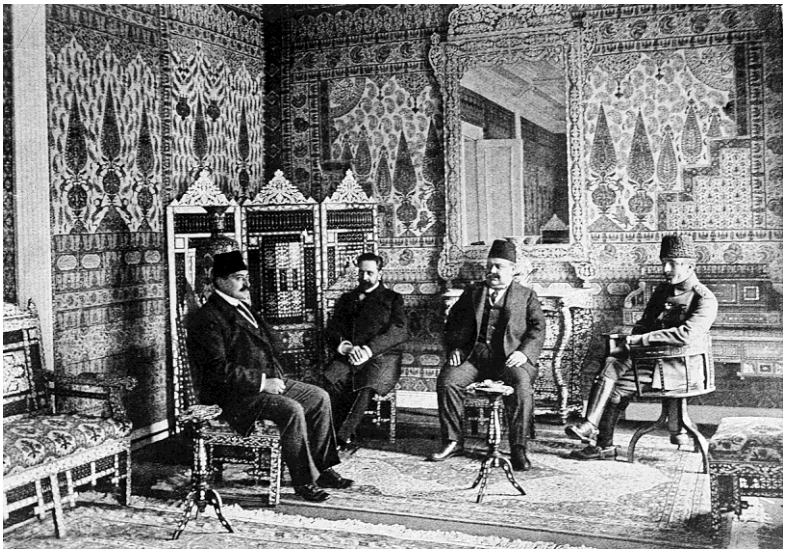

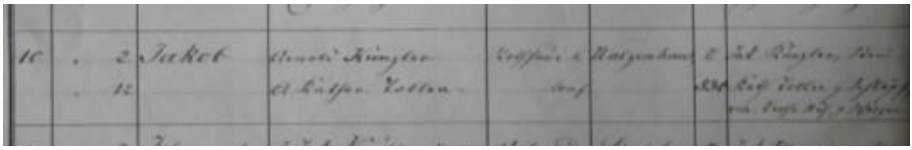

السطر الخاص بياكوب كونتسلر في سجل المعمودية في هوندفيل.

ولد ياكوب كونتسلر في الثامن من آذار عام ١٨٧١ م في بلدة هوندفيل في كانتون أبينزيل شرقي سويسرا. وعُمّد بعد أربعة أيام في الكنيسة. كان لدى ياكوب أخ يكبره وأربعة إخوة وأخوات يصغرونه سنا. توفي والد ياكوب وهو لم يتجاوز أربعة أعوام ونصف، فاضطرّت العائلة إلى إرساله إلى أقرباء ليعيش عندهم. هناك كان يشتاق كثيرا إلى عائلته. ثم سُمح له بالعودة إلى أمه التي كانت تسكن في بلدية تويفين في كانتون أبينزيل. وهناك أخذ يساعد النساجين في عملهم ويكسب بذلك بعض المال لمساعدة عائلته في مصاريفها.

ثم التحق بالمدرسة ليدرس على يد الأستاذ الصارم ذي الروح المرحة الأستاذ تسفينغلي. كما قُبل في الجوقة الكنسية للناشئين حيث كان يغني ويعزف على القيثارة والهارمونيكا. وعندما بلغ الحادية عشرة من عمره أصيبت أمه بمرض شديد، فقام برعايتها، وكان يقرأ لها كل يوم مقاطع من الكتاب المقدس. وقد تحسّنت حالتها قليلا إلا أنها ما لبثت أن استدعت أطفالها، ليجتمعوا حول سريرها، وأخبرتهم بأنها على وشك الموت. ثم طلبت من ياكوب أن يعدها بأن يبقى قويا ويعتني بإخوته وأخواته الصغار. وبذلك أصبح ياكوب الذي لم يتجاوز الأحد عشر عاما يتيم الوالدين.

ثم انتقل ياكوب ليعيش في بيت جدّه وجدّته ثم عند عائلة عرّابه في بلدة شتاين في كانتون أرجاو في شمال غرب سويسرا. وكان ياكوب يريد أن يصبح معلما، ولكنه لم يملك المال الكافي لتحقيق حلمه، فأخذ يتعلّم حرفة النجارة. وكان ياكوب يحضر الدروس الكنسية بانتظام عند القسيس ماير الذي كان عضوا في البعثة التبشيرية. ويوم أحد الشعانين عام ١٨٨٨ تلقّى ياكوب تثبيته الكنسي.

البيت الذي ولد فيه كونتسلر

من أرشيف العائلة: «الجد» ياكوب عندما كان طفلا صغيرا في

المدرسة.

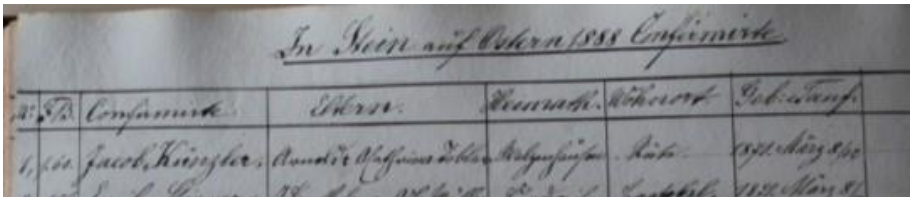

السطر الخاص بياكوب كونتسلر في سجل التثبيت الكنسي في بلدة شتاين

ياكوب كونتسلر في ريعان شبابه (حقوق الطبع والنشر محفوظة لأرشيف العائلة)

بما أن ياكوب كونتسلر قد أخذ يتعلم حرفة النجارة كان لا بد له أن يذهب إلى مدينة بازل السويسرية ليكتسب خبرة حرفية. وهناك اضطرّ للإقامة في المستشفى بسبب إجراء عملية جراحية له. وكان يقوم برعايته ممرضون في ريعان الشباب يدعون أنفسهم «الأخوة» أو «الشمامسة» كانوا قد تعلموا المبادئ الأساسية للتمريض وأخذوا يرعون المرضى عملا بوصية يسوع المسيح بمحبة الآخرين. تأثّر ياكوب بهم وقرّر أن يصبح شمّاسا مثلهم. وقد أحسن اتّخاذ القرار، فقد كان ودود الطبع، ثابت العزيمة، سريع الاستيعاب، متعدّد الاهتمامات، حادّ الذاكرة وماهر اليد وكأنه قد خلق لهذا العمل. إلا أن صراعا داخليا قويا كان يعتريه: هل هو متواضع لدرجة كافية تسمح له القيام بهذه العمل؟

صورة لياكوب كونتسلر التقطها الدكتور هيرمان كريست (حقوق الطبع والنشر محفوظة لأرشيف عائلة لاروش)

في صيف عام ١٨٩٩ استُدعي ياكوب كونتسلر للعمل في أورفة. لقد سأله الدكتور ليبسيوس، صديق الشعب الأرمني المشهور عالميا، إن كان مستعدا للعمل كممرض في مدينة أورفة في منطقة الأناضول الشرقية، فقد قامت هناك عدة مجازر بشعة ضد الأرمن، وسيتم إنشاء مشفى لإسعافهم. وقد تعرف كونتسلر على مدير المشفى المزمع تأسيسه الدكتور هيرمان كريست في مستشفى بازل الأهلي الذي طلب منه بدوره أن يعمل كمساعد له.

في خريف عام ١٨٩٩ ودّع كونتسلر بلاده الوداع الأخير وهو يقف أمام قبر والدته.

«ثم زرت مرة أخرى قبر والدتي في بلدة تويفين، إذ كان لا بد لي من مناجاتها، وهي التي كانت في صغري أحب شخص إلى قلبي من دون منازع. قلت لها وأنا أقف أمام قبرها: يا أمي، ستفصلنا بلدان وبحار، ولكن قلوبنا لن تفترق أبدا. سأثبت لك بأنني جدير أن أكون ابنك، وستكونين فخورة بي في الحياة الأبدية. فليكن الله في عوني!»

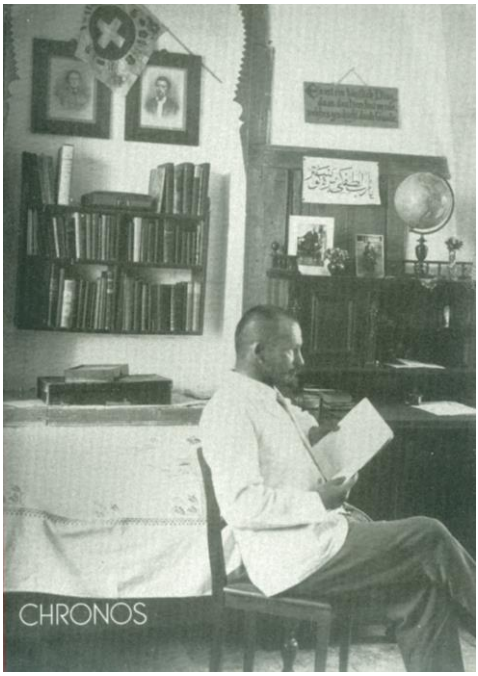

ياكوب كونتسلر وهو يقرأ، الصورة مأخوذة من كتاب «سويسرا وأرمينيا»

أثناء رحلة إلى بساتين حلب أشفقت فتاة يانعة على الشابّ الذي ما زال يمتطي الخيل بشكل سيء، وبقيت في مؤخرة الركب معه. إنها اليزابيث بيندر التي كانت ابنة لمبشّر أوروبي وأميرة حبشية، ولكنها قد فقدت والديها وهي ما زالت طفلة. كونتسلر وبيندر وقعا في الحب من أول نظرة ولكنهما لم يبوحا بحبهما. وبعد مضي ست سنوات بحث ياكوب عن الشابة فوجدها في اسكتلندا حيث كانت تُعدّ نفسها كي تصبح ممرضة. وعندما وافقت أخيرا على الزواج منه أصبحت اليزابيث رفيقة دربه التي لا تفارقه. ولولاها لما استطاع تحقيق ما حقّقه في حياته من إنجازات.

اليزابيث بيندر كممرضة شابة

أرشيف العائلة: ياكوب واليزابيث كونتسلر أيام شبابهما

أنجبت اليزابيث خمسة أطفال. وكانت العائلة تبدأ يومها بقراءة مقطع من الكتاب المقدس فالترتيل والصلاة. وفي أيام الآحاد كانت العائلة غالبا ما تحضر القداس في الكنيسة البروتستانتية السريانية.

«لقد اتبعنا في حياتنا الزوجية وصفة ممتازة كنا نتصالح بفضلها بسرعة. كنا نصلي دائما قبل النوم، وبما أنه من المستحيل أن يصلي المرء بقلب يملؤه الحقد، كنا نتصالح دائما قبل الصلاة. إنها وصفة مجربة!»

في «غرفة عمليات» المشفى: ياكوب كونتسلر على اليسار يخدّر المريض، وخادم البيت موخ أبراهام يمسك بقدميه، أما الدكتور كريست فيقوم بإجراء العملية الجراحية له بمساعدة الطبيب الأرمني أبراهام أتاريان والممرضة كامين. (حقوق الطبع والنشر محفوظة لأرشيف عائلة لاروش)

أصيبت زوجة الدكتور كريست بمرض السل ولذلك توجب عليه مغادرة البلاد. وخلفه كمدير لمشفى أورفة الدكتور أندرياس فيشر. وهو أيضا من مدينة بازل السويسرية. وقد عمل معه ياكوب كونتسلر على مدى عشر سنوات متواصلة. وكان يُكنّ كل منهما للآخر فائق الاحترام والتقدير. ويدلّ منزلاهما الحديثا البناء – أحدهما مخصّص للطبيب والآخر لعائلة الشماس – على أهمية تواجدهما في المدينة لجميع الأهالي والسكان.

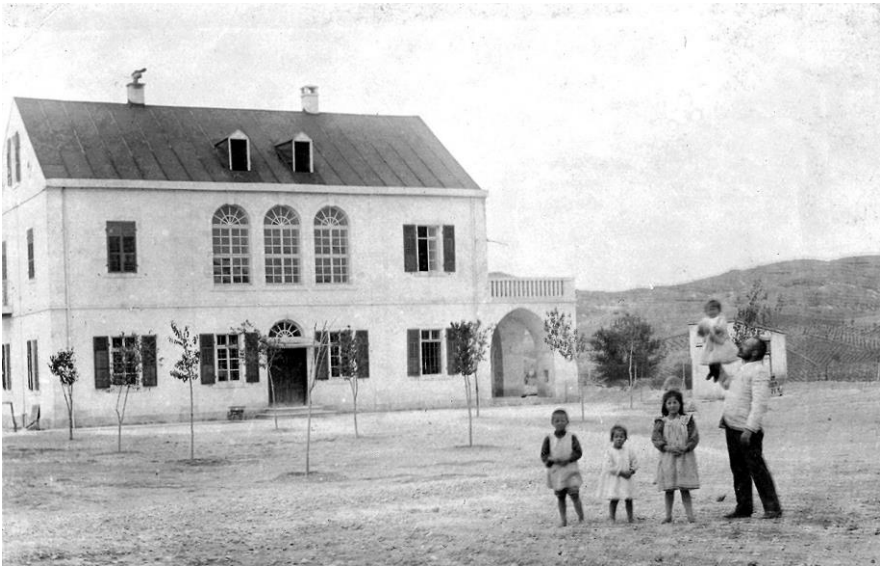

ياكوب كونتسلر مع أولاده أمام بيت الدكتور فيشر

تعلم ياكوب كونتسلر اللغة الأرمنية والتركية والعربية والكردية والانكليزية بسرعة فائقة، وكان يتفاهم مع الناس من مختلف الطبقات دون الحاجة إلى مترجم. وكان يكتب بانتظام مقالات لمجلة «الشرق المسيحي» أثبت فيها قدرته الفذّة على عرض الحقائق بشكل موجز وبأسلوب واضح، شيّق، جذّاب، يخلب الألباب. وكان يحاول تفادي الانحياز والإنصاف في حق جميع الناس آخذا بعين الاعتبار ظروف حياتهم المختلفة. وعلى مدى سنوات طويلة كان يسجّل يوميا بيانات الطقس والأحوال الجوية. وكان شديد الملاحظة والانتباه ودائم التعلم. وسرعان ما أصبح بمقدوره إجراء العمليات الجراحية. وقد وصف بدقة علمية فائقة أمراضا مختلفة. كان كونتسلر إذن يجمع في شخصه ما بين القدرة على الملاحظة المجردة للواقع والثقة التامة الراسخة في كلمة الله والكتاب المقدس.

خريطة مرسومة بيد أندرياس غيغر، هوندفيل

في عام ١٩٠٨ وعلى إثر الإطاحة بالسلطان العثماني عقد الكثيرون آمالا كبيرة على إحلال نظام سياسي جديد يتمتع فيه جميع الناس بغض النظر عن انتماءاتهم القومية والعرقية بنفس الحقوق والواجبات. ولكن هل يمكن أن تتغيّر العادات التي دُرج عليها الإنسان بسرعة؟

وضع حجر الأساس لبناء مشفى أورفة («السلام المفقود» ص ٤٥٩)

عام ١٩١٣ تم وضع حجر الأساس لتشييد المشفى الجديد في أورفة بحضور جميع أعيان المدينة. ونرى ياكوب كونتسلر على اليسار تحت الشجرة وهو يضع على رأسه قبعة بيضاء. (مجلة الشرق المسيحي)

ورغم كل الصعوبات استمرّ توسيع نطاق العمل في أورفة. وفي عام ١٩١٢ جُمعت الأموال الكافية، وفي العام اللاحق وُضع حجر الأساس لتشييد المشفى الجديد. ولكن الحرب العالمية الأولى اندلعت فجأة. وكان الدكتور فيشر يُمضي الإجازة في موطنه، فلم يُسمح له بالسفر خارجا. وهكذا تولّى كونتسلر لمدة أربعة أعوام متواصلة إدارة المشفى لوحده.

وشاركت تركيا في الحرب حليفة لألمانيا، وقد انتهت المعركة ضد روسيا بخسارة فاجعة. ولكن من هو المسؤول عن هذه الخسارة؟ قيل إن الجنود الأرمن قد هربوا وألقوا السلاح. ووُجّهت إلى الأرمن جميعا تهمة التآمر مع العدو.

ياكوب كونتسلر مصاب بحمى التيفوئيد. الأول من أيار. كونتسلر

حمى التيفوئيد مضت، على طريق الشفاء، صندوق المال فارغ، ياكوب ٢٧ أيار ١٩١٥

برقيتان موجّهتان إلى الدكتور أندرياس فيشر

ما إن تعافى ياكوب كونتسلر من حمّى التيفوئيد حتى لاحت بوادر وبال كبير يُهدّد المنطقة. لقد أخذت مواكب المرحّلين من الشمال تصل إلى أورفة. إنها فلول من النساء والأطفال فقط، فالرجال كانوا قد قُتلوا. وما لبثت أن بانت الحقيقة واضحة: المجزرة لم تكن مجرد عملية عشوائية. إن التكنولوجيا الحديثة فتحت باب القتل الممنهج. وأصبح من الممكن عبر شبكة الاتصالات التلغرافية تنظيم عملية إبادة جماعية بناء على أوامر سلطة مركزية. فالدولة العثمانية وقد أدركتها الشيخوخة كان لا بد من تحويلها إلى دولة قومية حديثة و«تخليصها» من المجموعات القومية غير التركية: بدءا من الأرمن فالسريان فاليونان وأخيرا من الأكراد أيضا.

كان كونتسلر يجمع الأخبار، ويُعلم القنصل الألماني في حلب بالمستجدات، ويسجّل ملاحظاته الشخصية. ولكنه كان يقرّ بعجزه في مواجهة هذه الفاجعة المأساوية. وفي ١٩ تشرين الأول ١٩١٥ انهارت المقاومة في حيّ الأرمن في أورفة. وأنهى صديق كونتسلر الحميم ليسلي حياته في لحظة من اليأس. أما كونتسلر فنجح بشجاعة حكيمة متروية في الإبقاء على المشفى مفتوحا وفي إنقاذ بعض الأرواح. وكانت لاليزابيث كونتسلر علاقات كثيرة في الوسط النسائي في أورفة مما مكّنها من تهريب بعض النساء والأطفال إلى حلب. أما زميلتها في العمل كارين جيبه فقد نجحت في إخفاء سبعة رجال تحت سقف بيتها. ومما يدعو للعجب أن الزوجان قد احتملا هذه الأوقات العصيبة التي دامت سنوات طويلة دون أن يُصابا بأزمة نفسية.

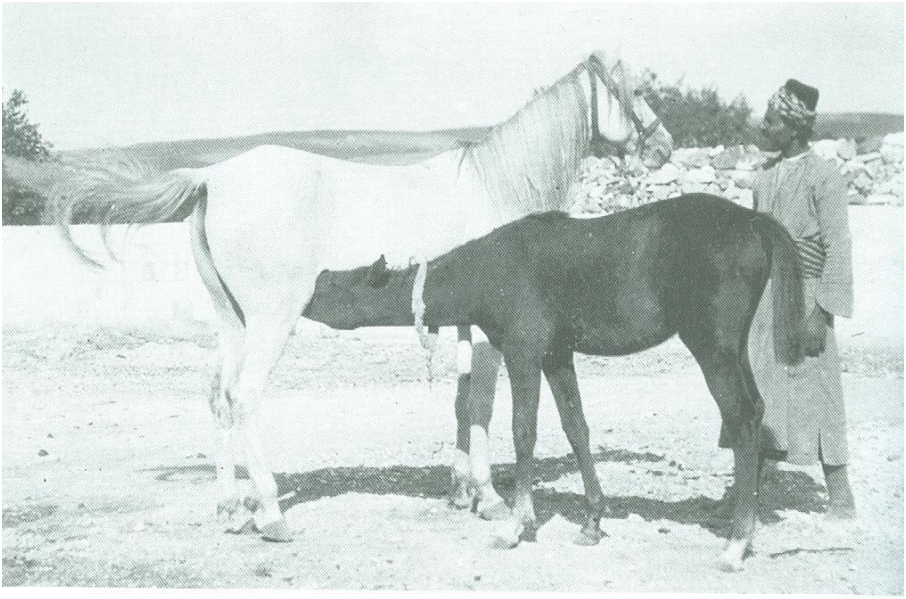

الخادم علي الذي ساعد في رعاية المختبئين وتهريب المُهدّدين بالموت إلى الخارج، والذي لم يبُح بشيء من ذلك رغم التعذيب الشديد الذي تعرّض له.

أمضى ياكوب كونتسلر وعائلته عاما كاملا في بازل في إجازة في وطنه الأم. وبعد أن عادوا إلى أورفة اتضح لهم أن مواصلة العمل هناك أصبح عديم الجدوى. فالمسيحيون بأجمعهم تقريبا لقوا حتفهم، أما الأتراك المسلمون فلم تكن المؤسسات الحكومية العثمانية تُحبِّذ أن يتلقّوا أي مساعدة من الخارج. وهكذا قام ياكوب كونتسلر في الأول من تشرين الأول عام ١٩٢٢ بإغلاق المشفى في أورفة.

«وأخيرا اتخذت قرارا نهائيا مع أنه كان مؤلما جدا بأن أنهي العمل في أورفة وأنتقل إلى سورية وأنا كلي إيمان بأن الله سيقود خطاي هناك أيضا.

وفي نفس هذا اليوم قبل ثلاثة وعشرين عاما عبرتُ نهر الفرات من نفس المكان الذي وطئت قدماي فيه لأول مرة أرض هذا البلد. والآن ينتهي ذلك العمل الطويل الذي كان مبنيا على المحبة الخالصة والصلاة وعرق الجبين.

هل كان ذلك كله عبثا دون جدوى؟ من كان مؤمنا أجاب بثقة: لا، أبدا!»

أما المسيحيون الذين تبقّوا في البلاد فكانوا يخشون من عمليات إبادة جماعية جديدة، فقرّرت الجمعية الخيرية الأميريكية «إغاثة الشرق الأدنى» نقل الأطفال اليتامى إلى بلد مجاور آمن. فكان لا بد من تجميع الأطفال من أماكن شتى، والحصول على وثائق رسمية لهم من الدوائر الحكومية المحلية، وتنظيم عملية نقلهم. أما طريق السفر فكان يمرّ بمناطق خطيرة تتهدّدها عصابات النهب. ولكن من يمكنه أن يقود أفواج الأطفال بشكل مضمون؟ طبعا لا أحد سوى ياكوب كونتسلر الخبير بمختلف عقليات الناس والذي تعتبره جميع الأقوام والطوائف صديقا لها. وبأعجوبة نجح كونتسلر في نقل ثمانية آلاف طفل من الأطفال اليتامى عبر نهر الفرات إلى سورية ولبنان إلى بر الأمان.

الأطفال اليتامى على الطريق إلى سورية ولبنان

تكفّل كونتسلر وزوجته بالعناية بحوالي ألف وأربعمائة طفل من خلال إدارة دار للأيتام. وقد اضطرّ ياكوب كونتسلر بسبب إصابته بتسمم دموي إلى بتر ذراعه اليمنى. وهكذا أصبح «الأب» يدير أمور أولاده ويرعاهم بذراع واحدة.

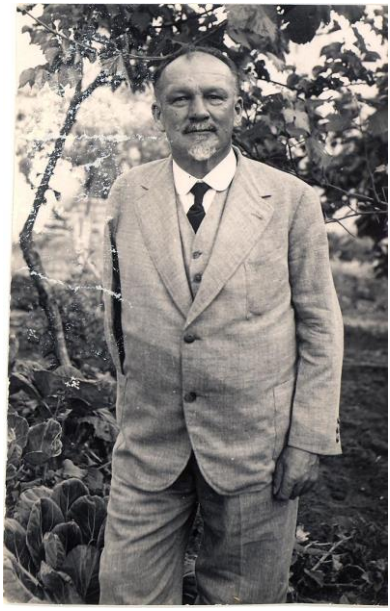

الأب كونتسلر بذراع واحدة (حقوق الطباعة والنشر محفوظة لأرشيف العائلة)

كان ياكوب كونتسلر يتواسط لتزويج فتياته البالغات. وقد أمّنت ورشة للسجاد اليدوي العمل لهن. وقد أُهديت إحدى السجاجيد التي نسجت في تلك الورشة إلى البيت الأبيض في واشنطن.

ياكوب كونتسلر وفتاة أرمنية يتيمة ينسجان السجادة المخصصة للبيت الأبيض

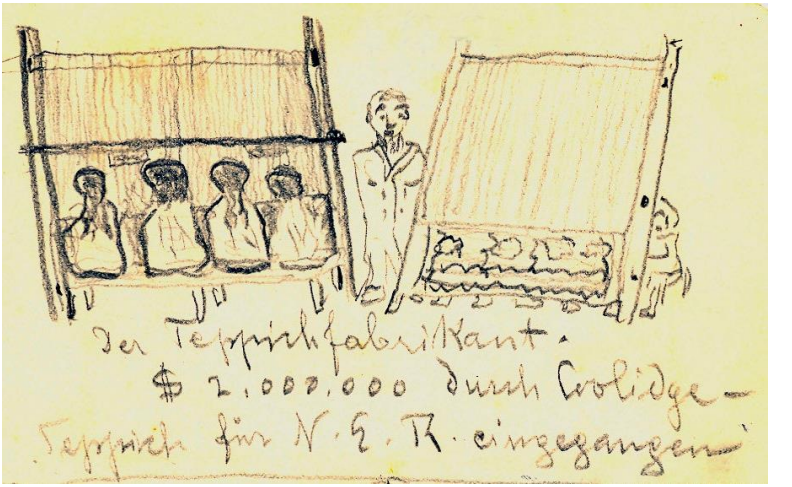

أرشيف العائلة: ياكوب كونتسلر يرسم نفسه وهو يعمل وسط الأطفال اليتامى الذين ينسجون السجاجيد

بعد أن استقلّ الأولاد بأنفسهم ندر كونتسلر نفسه لمهمة جديدة. لقد تم إنشاء دور للنساء الأرامل في غزير بمساعدة الجمعية السويسرية لأصدقاء الأرمن، وتسلّم كونتسلر إدارتها. فضلا عن ذلك كافح كونتسلر انتشار مرض الملاريا باستخدام سمكة الجامبوزيا التي تتغذّى على يرقات البعوض الناقل له. وأخيرا توّج كونتسلر أعماله الخيرية ببناء مصحّ أرمنيّ في لبنان. لم تلق جولته في الولايات المتحدة الهادفة لجمع الأموال اللازمة لبناء المصح نجاحا باهرا، إلا أن أصدقاءه في سويسرا مكّنوه بفضل تبرّعاتهم من بناء المصحّ. وفي عام ١٩٤٧ تم تكريمه بشكل رسمي، فقد منحته كلية الطب البشري لجامعة بازل درجة الدكتوراة الفخرية في الطب.

من أرشيف العائلة: ياكوب كونتسلر يسترجع ذكريات حياته رسما. فبائع الرمل والحائك أصبح نجارا وهو بدوره أصبح شمّاسا ثم طبيبا وأبا للأيتام، وبعدها تحوّل إلى مؤلّف يكتب بيد واحدة وأخيرا أضحى محاضرا يُلقي محاضرات عن التوعية الجنسية مستخدما أحدث تقنيات عرض الصور التوضيحية.

في الخامس عشر من كانون الثاني عام ١٩٤٩ توفّي ياكوب كونتسلر في بلدة غزير في لبنان في كنف عائلته، وبعد يومين شُيّع في بيروت في جنازة كبيرة. وفي الثاني والعشرين من شباط عام ١٩٥٩ أي بعد وفاته بعشر سنوات رُفع الستار عن لوح تذكاري أقيم له في مسقط رأسه هوندفيل بحضور زوجته اليزابيث. أما اليزابيث كونتسلر بيندر فقد فارقت الحياة بعد ذلك بتسع سنوات عن عمر يناهز اثنين وتسعين عاما.

اليزابيث كونتسلر بيندر في عيد ميلادها التسعين.

الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِي فَعَلْتُمْ.

متى ٢٥:٤٠

في عام ١٩١٢ جُمع المال الكافي لتشييد مشفى في أورفة ولهذا الغرض نُشرت صور فوتوغرافية في المجلة الشهرية «الشرق المسيحي» علّق عليها ياكوب كونتسلر بكلمات موجزة تشهد للشمّاس بذهنه المتوقّد ومحبّته المتفانية، وتلقي الضوء على الحياة اليومية في أورفة في تلك الفترة.

أخواتنا الممرضات

ارتفع عدد ممرضاتنا المحليات إلى خمس ممرضات منذ وقت طويل. رئيسة الممرضات هي الأخت آنا ذات الكفاءة العالية. وهي هادئة الطبع، دؤوبة العمل، وراسخة الإيمان في المسيح. وهي تقف في أقصى اليمين في الصورة. وهي تعمل في المشفى منذ أحد عشر عاما.
وإلى جانبها تقف الأخت أوسانا. وهي ابنة شماس الكنيسة البروتستانتي، الذي توفّي في مشفانا عقب إصابته بتسمم دموي. وهي تعمل عندنا منذ خمس سنوات. وهي بارعة في عملها وتعامل المرضى بمحبة كبيرة.

أما أقصر الأخوات في وسط الصورة فهي الأخت كوتسي. وهي تعمل عندنا منذ عام ١٩٠٩. والمرضى يتجاوبون معها بشكل رائع فهي تتعامل معهم دائما بوجه مشرق وصدر منشرح. عندما بدأت العمل عندنا كانت تعطي انطباعا بأنها لن تصبح ممرضة ناجحة، إذ لم تكن حاذقة جدا، وكانت التسميات العديدة الجديدة التي يجب أن تحفظها عن ظهر قلب تُكلّفها أكثر من وسعها. ولكنها أصبحت اليوم إنسانا مختلفا كليا، فهي بارعة اليد، وشديدة الانتباه، ونافذة

البصيرة. وأحيانا يقودها اندفاعها لتصبح «متهورة» قليلا. منذ عام تدهورت صحتها ووجب عليها أن تراعي نفسها، إلا أنها لا تقوم بذلك إلا إذا دفعتها لذلك دفعا وذكّرتها بذلك مرارا .

أما الأخت الرابعة فتدعى ربسوم أو هوروم كما اعتدنا على مناداتها. وهي أينع الأخوات عمرا، لم تتجاوز العشرين بعد، ولكنها أوشكت أن تنهي عامها الثاني في العمل عندنا. وطبيعتها مريحة جدا للمرضى. وبلا ريب لا بد لها أن تكتسب مزيدا من الخبرة والمعرفة. وبما أن أغلب الأتراك الأصليين لا يستطيعون مشاهدة وجه أنثوي مكشوف دون أن يُغدقوه بنظراتهم الشهوانية، وبما أن الأخت هوروم تعتبر آية في الجمال حسب مقاييس الجمال الشرقية، فكثيرا ما كان بعض المرضى الأتراك يسيئون التصرف، فأُضطرّ إلى التدخّل وتعنيفهم بشكل صارم.

أما أحدث الأخوات في الخدمة فهي الأخت خاتون التي تعمل عندنا منذ عدة شهور فقط. قدمت إلينا في البداية كمريضة تعاني من مرض أذني سمعي. وأثناء مدة إقامتها في المشفى قرّرت أن تصبح ممرضة وأخبرتنا بذلك. وعندما احتجنا يدا عاملة قمنا بتوظيفها. وهي تعطي انطباعا جيدا ونحن نعقد عليها آمالا كبيرة. وقبل العطلة الصيفية يجب أن تُجرى لها عملية عينية بسبب إصابتها بالرمد.

وجميع هؤلاء الأخوات الخمس قد حازوا على تربية مسيحية بروتستينية ما عدا الأخت خاتون فهي تنتمي إلى الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية. فليبارك الله عمل هؤلاء الأخوات بأن ينظر إلى أبناء بلادنا!

غرف المرضى وتجهيزاتها الداخلية

لا يمكن رؤية الأشياء بوضوح على هذه الصورة. ولكن إن أمعنا النظر جيدا رأينا بصعوبة رؤوس ثلاثة مرضى. إن غرف المرضى لدينا صغيرة وضيقة جدا، ولا يمكن إظهارها على صورة فوتوغرافية بمظهر لائق. عندما أُخذت الصورة الفوتغرافية كانت هذه الغرفة تضم تسعة مرضى . أما المريض في وسط الصورة فكان لا بد من وضعه على سرير مؤقّت، لأن الغرفة تتسع لثمانية أشخاص فقط. وكثيرا ما اضطررنا في الحالات الطارئة إلى زحزحة الأسرة لنتمكن من وضع سرير إضافي في الغرفة، ليرقد عليه المريض التاسع. ويمكن رؤية ثقل معلّق بحبل على أحد الأسرة. وهو يزن حوالي عشرين رطلا وقد استعمل لتثبيت ساق مريض بدوي أصابته طلقة رصاصية أثناء أحد الغارات وفتّتت عظم ساقه.

ولا تغرنكم علبة سجائر الهافانا المتألّقة في الصورة والتي قد تستدرج البعض إلى الاعتقاد بأننا ندخّن سجائر الهافانا. إنها مجرد علبة نحتفظ فيها بميزان الحرارة. أما جرة الماء البديعة الصنع الموضوعة على الطاولة فتعطي طابعا جماليا، وتُبقي على ماء الشرب باردا منعشا بفضل مساميتها العالية. وبجانبها نرى وعاء للاستفراغ نستنتج منه أن المريض الراقد في الجوار قد خرج لتوه من عملية جراحية ومفعول الكلوروفورم لم يزُل من جسمه بعد.

مرضى المشفى

إنه لحدث كبير في المشفى اليوم أن نتمكن من تصوير هذا العدد الكبير من المرضى الذين يقفون على أقدامهم. فعادة ما يتوجب على المريض مغادرة المشفى حالما يتمكن من المشي على قدميه عارجا مترنّحا كي نعطي سريره إلى مريض جديد. ولذلك نادرا ما تجد لدينا هذا العدد الكبير من المرضى الذين يمكنهم الوقوف على أقدامهم. والممرضات الأربع اللواتي كن يعملن نهارا أردن أيضا أن يظهرن على الصورة وبذلك كبر حشد الأشخاص الواقفين للتصوير.

والآن أرجو أن يتحلّى القارئ وصديق جمعيتنا التبشيرية العزيز بالصبر وأنا أُقدّم له مرضانا الواحد تلو الآخر.

في أقصى اليمين نرى رمضان الكردي جالسا معصوب العينين. وقد جاء إلينا من بلدة سوروك الواقعة على بعد يومين سيرا على الأقدام. عندما وصل لم يكن يرى بعينيه كلتيهما فأجرينا له عملية لعينه اليمنى، ولكن لسوء الحظ فشلت العملية. فاضطررنا أن نجري عملية لعينه الثانية. والحمدلله، نجحت العملية بعد الكثير من القلق والصلوات وأصبح المسكين يرى بعين واحدة.

وإلى جانبه تجلس امرأة مسيحية معصوبة العينين أيضا. عينها الوحيدة المتبقية أصابها ورم خبيث وكادت أن تفقد بصرها. ولكن الحمدلله، أدّت العناية الدؤوبة وذات التكاليف الباهظة إلى إنقاذ العين الثمينة للمرأة المسكينة التي ترعى ثلاثة أطفال قاصرين.

إلى جانب هذه المرأة تجلس فتاة مسيحية صغيرة من مدينة أديامان الواقعة على بعد يومين من هنا. في البداية أجرينا لها عملية جراحية في جفن عينها. ثم اضطررنا لاحقا إلى إجراء عملية ثانية لاستئصال الطحال المتورّم، والذي كان يسبب لها آلاما مبرّحة. وهي الآن، أي أثناء كتابتي هذه الكلمات، قد شُفيت شفاء كاملا.

وخلف الفتاة تقف إحدى خادماتنا السابقات التي كانت تعمل في مركزنا في ديار بكر. وقد اضطررنا أن نجري لها عملية جراحية لاستئصال ورم سرطاني. ويجب أن أنوه هنا ألى أن جدلة شعرها الطويلة المتدلية حتى خصرها تُبيّن أن نساء المدن هنا أيضا يتفاخرن بشعرهن الطويل. وإن لم تمتلك إحداهن شعرا طويلا تلجأ إلى شعر مستعار كما هو حال خادمتنا. أليس الأمر مضحكا؟

إلى جانب الفتاة القادمة من أديامان تجلس بوداعة مريضة تضع على عينيها نظارة عاتمة. إنها عجوز تركية من سوروك. وسبب سعادتها أنها قد استعادت بصرها بعد أن كانت قد فقدته على عينيها كلتيهما بسبب إصابتها بالساد. والآن أصبحت تبصر من جديد بفضل العملية الجراحية.

إلى جانبها تجلس امرأة من ماردين الواقعة على بعد أربعة أيام من أورفة. وهي تحمل ابنها في حضنها. وهي لم تخضع للعلاج وإنما ابنها الذي استخرجنا حصوة من مثانته. والطفل كان فقير الدم ومتورّم الجسد إلى درجة أننا تخوّفنا من ألا يجتاز العملية الجراحية. ولكنه تحمّلها بشكل جيد جيدا وأفضل بكثير من طفل آخر ممتلئ الجسم أجريت له في نفس اليوم عملية جراحية لاستئصال حصوة من مثانته. وشرعنا في العملية قائلين : «لا داعي للقلق، هذا الطفل سيجتاز العملية بشكل جيد حتما.» ولكنه توفي بعد العملية بيومين. هكذا هي الدنيا، كثيرا ما تُثبت قوة من وُصِم بوصمة الضعف وتكشف ضعف من اتّشح بوشاح القوة.

أمام سرير الطفل يقرفص رجل ملتح يبدو عليه القلق والتفكّر وهو معصوب العينين أيضا. ألا يشبه رمضان الذي وصفناه لتوّنا؟ إنه أخوه علي الذي أجرينا له عملية جراحية عينية أيضا. وهو مازال يعاني من الآلام التي يسببها الورم والالتهاب بعد العملية.

أما المريض الذي يقف خلف علي وخلف الطفل القادم من ماردين فهو مصطفى مانير الذي يتكفّل بنفسه بتكاليف العلاج.

من كان على علم ودراية بالأسماء في هذه البلاد يدرك فورا أن الرجل يحمل اسما مسلما وآخر مسيحيا في نفس الوقت. هذا أمر غريب جدا هنا! إنه يدعى بهذا الاسم في الأوساط المسيحية فقط. ومانوغ أو مانير اختصارا هو اسم عمادته. عندما قامت مجازر عام ١٨٩٥ المأساوية بقي مانير المسيحي الوحيد في قرية مسلمة. فوُضع بين خيارين إما الموت أو اعتناق الإسلام. على حد قوله كان يمتلك كالكثير من أقرانه المسيحيين الشجاعة الكافية ليموت على دينه. ولكن زوجته الشابة وأولاده الصغار لم يتوقّفوا عن التوسّل إليه والدموع تنهمر من عيونهم كيلا يُفرّط بحياته. وهكذا أصبح مسلما واتخذ اسم مصطفى كاسم جديد. كانت ساعة سوداء في حياتي! هكذا يصف مانير اعتناقه الإسلام. وبعد المجازر اضطرّت الحكومة التركية عقب ضغوط خارجية إلى منح عفو عام للمسيحين الذين اعتنقوا الإسلام دينا جديدا وإقرار حق عودتهم إلى دينهم القديم. ولم يتردّد مانير أبدا واختار فورا العودة إلى دينه القديم الذي كان راسخا في قلبه. ولكن الاسم مصطفى بقي يلازمه كعلامة فارقة منحه إياها أخوته المسيحيون.

ويجب التنويه إلى أن أغلب المسيحيين المحليين لم يستحسنوا ما فعله مانير. وهذا ما يشهد لهم بالنخوة والشرف. فالآلاف منهم قد أُجبروا على الاختيار، وكان لديهم أيضا زوجة وأبناء، ولكنهم كانوا يمتلكون الشجاعة الكافية ليختاروا الموت على إنكار إيمانهم في المسيح.

ولكن ما الذي قاده إلينا إلى المشفى؟ لقد أُصيب بالحمرة مما أدى إلى تموّت جزء كبير من جلده. ولو كان قد انتظر قليلا لوقف الآن على حافة الموت. ولكن الله منحه عمرا جديدا. كان لا بد من زراعة بشرة سليمة لتغطية المساحة الكبيرة من الجلد المتآكل. ولهذا الغرض أجرينا له عملية جراحية استخدمنا فيها أحدث التقنيات الطبية التي تتيح في أيامنا هذه صنع المعجزات. وقد نجحت العملية. ولذلك نرى مصطفى مانير على الصورة والرضى والقناعة يعتليان وجهه.

أما الغلام الصغير الذي يرقد في السرير فهو الأرمني أوهانيس. وهو يقيم عندنا منذ أكثر من ثلاثة شهور بشكل مجاني. فعظم قصبة ساقه تموّت كاملا، ونمو العظم من جديد يحتاج وقتا طويلا. وهو أزرق العينين وأصهب الشعر وقد يكون أحد أجداده القدامى جرمانيا عاش في عصر الحروب الصليبية. وهو يمسك في يده كتابا مصورا. وهنا أود أن أنتهز الفرصة وألتمس منكم شيئا. الكتب المصورة تعوزنا في المشفى عوزا شديدا، فالجميع دون استثناء صغارا وكبارا يتصفّحون الكتب المصورة بسرور وفرح شديدين. فالقراءة في هذه البلاد حكر على قلة قليلة من الناس، وبالتالي فالكتب المصورة يرحّب بها الجميع بشغف كسبيل لتمضية الوقت.

والرجل الذي يحمل عكازا فهو مريض كردي يدعى إبراهيم وهو من سوروك. كان كلما لمحني طلب مني كتابا مصورا. وقد أصيب بطلق ناري أدّى إلى تشوّه قدمه بسبب خروج العقب من مكانه. فأجرينا له عملية جراحية أعادت العظم إلى مكانه.

أما الرجل الطاعن في السن الذي يقف خلفه فهو مسيحي من أورفة. كان قد تعافى من عملية جراحية أجريناها له، ولكن لون بشرته الشاحب يدل على إصابته بمرض خفي لم يتم تشخيصه بعد.

وإلى جانبه يقف الصائغ إلياس من تشونغوش الواقعة على بعد خمسة أيام من أورفة. ومنذ سنوات طويلة أصبح عاجزا عن العمل بسبب الآلام العصبية المبرّحة التي ابتلته. وهنا في المشفى تعافى من أوجاعه. وعندما عاد إلى بلدته لم يتوقف عن مديح الطبيب الذي عالجه مادحا كفاءته الطبية العالية. مما أدى إلى توافد قوافل المرضى من تلك المنطقة إلى أورفة.

وعلى السلم الصغير ذي الدرجات يجلس شاب بروتستانتي من سوروك. وقد أُدخل المشفى بسبب إصابته بتدرّن في قدمه. هل يمكن شفاؤه؟ للأسف شفاؤه بعيد المنال، فالإصابات السلّية نادرا ما يتحرّر منها المريض الذي وقع ضحية لها. وهذا الشاب يمكنه أن يقرأ وهكذا فهو يمضي وقته بالقراءة وخاصة بقراءة الكتاب المقدس التي تُنسيه مصيبته وتواسيه.

من منا لا يشكر الله على الصحة التي منحها إيانا وهو يتأمل صورة مرضى المشفى؟ من منا يريد أن يذكر المرضى ويعاوننا في مد يد المساعدة إلى هؤلاء المساكين المُعدمين ؟

في المشفى صباحا

لقد وقف حشد متنوّع من الناس لالتقاط هذه الصورة، فأنت ترى الكبير والصغير، الشاب والعجوز، الغني والفقير، المسيحي والمسلم، كلهم مجتمعون في المشفى صباحا كالعادة. يمكنك أن تحصي على الصورة حوالي مائة شخص. ولكن عادة ما يكون هؤلاء الأشخاص موزّعين على باحتين وغرفتي انتظار. المرضى الذين يأتون لتغيير أضمدتهم أو للمراجعة العينية يتم استقبالهم في غرفة مختلفة عن الغرفة التي يُستقبل فيها المرضى الجدد الذين يأتون طلبا للاستشارة الطبية. في أشهر نيسان وأيار وحزيران يتدفّق المرضى تدفقا حتى يكاد من الصعب علينا أن ننجز كل مهامنا.

المشفى الجديد لا بد أن يحتوي على قاعة انتظار كبيرة تتسع لجميع المرضى جالسين، بحيث يمكننا أن نقرأ عليهم كلمة الله قبل البدء بالعمل الطبي. حتى يومنا هذا مازالت غرف الانتظار صغيرة جدا وغير معزولة وخالية من اللوحات التي يمكن أن تُعزّي المرضى أثناء انتظارهم الطويل. أما في المشفى الجديد فستتحسّن الأحوال من هذه الناحية تحسّنا ملحوظا.

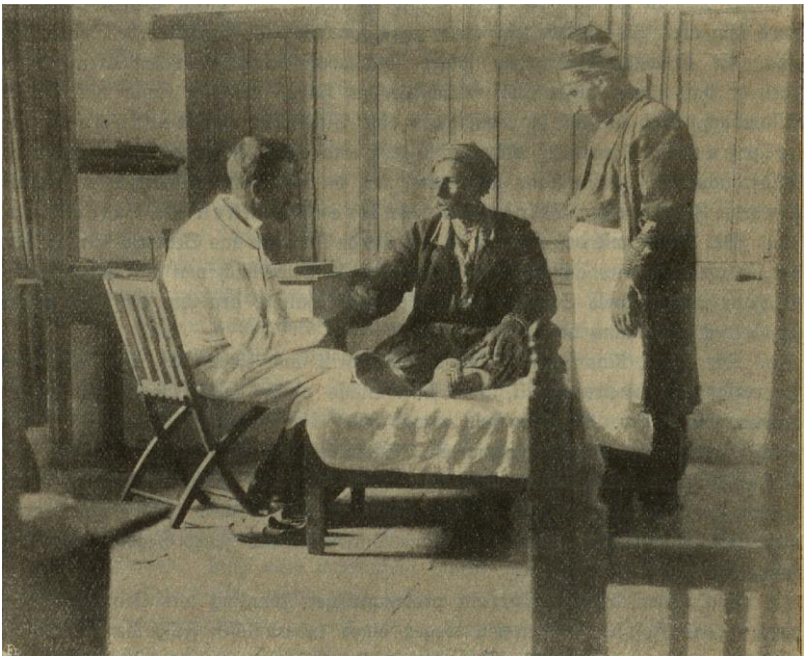

معاينة مريض

إن غرفة معاينة المرضى صغيرة. وبما أنها تُستخدم في نفس الوقت كمخبر، فلا عجب أن يشعر المرء فيها بضيق المكان. وفي المشفى الجديد سيكون الوضع أفضل بكثير.

على السرير يجلس مريض تركي من بلدة سوروك وهو حافي القدمين إذ لا يسمح له أن يوسخ السرير الأبيض بحذائه. والدكتور فيشر يتحسّس نبضه ويستمع في الوقت نفسه إلى قصّته المرضية. أما الرجل الواقف إلى جانبه فهو خادمنا المسنّ ميرخ أبراهام. وهو يترجم في أيام المراجعة للمرضى عند الحاجة ويساعدهم في خلع وارتداء ملابسهم. وميرخ أبراهام يجب أن يتقاعد قريبا إذ لم يعد قادرا على إنجاز الكثير مما يطلب منه. أما مهمته الأخرى الأساسية فهي تحضير الضمادات ولفّها. إنه بحق مُصنّع الضمادات في مشفانا.

على الرغم من أن غرفة المعاينة لا ينشرح لها الصدر ولا يمكن أن نتباهى بها إلا أننا نعالج فيها بمعدل وسطي خمسة آلاف مريض سنويا. في المشفى الجديد سنعلق بعض اللوحات الجميلة على جدران غرفة المعاينة التي تطيب لها النفس.

مجموعة من المرضى الأكراد

يالها من صورة مضحكة! إنها تُظهر أكراد المدينة والريف الذين يمكن تمييزهم عن بعضهم البعض من خلال ملابسهم. من الواضح أن الرجلين اللذين يقفان إلى اليمين إضافة إلى الرجل الجالس إلى اليسار من أكراد المدينة. أما الرجل الواقف إلى اليسار إضافة إلى الكهل ذي الذقن الشيباء ينتميان إلى أكراد الريف. وهذا الأمر ينطبق أيضا على النساء. فالنساء اللواتي يرتدين العباءة الفاتحة اللون التي تستر وجوههن ما عدا جزء صغير منه، فهن من كرديات المدينة أي من «الباشيري» باللغة الكردية، أما المرأتان اللتان ترتديان ملابس داكنة اللون فهن من «الغوندي» أي من القرويات.

أما فيما يتعلق بالأطفال فلا يمكن القول بسهولة إن كانوا من «الغوندي» أم من «الباشيري» لأن الاختلاف بينهما غير واضح ظاهريا. من المحتمل أن يكون أطفال أكراد المدينة متسخين وأطفال أكراد الريف أكثر اتساخا. وكل الأطفال الذين نراهم على الصورة هم من أكراد المدينة ما عدا الطفل الثاني من اليسار فهو من أكراد الريف.

والرجل الكردي الطاعن في السن ألا يبدو شيخا وقورا؟ إن ألبسناه ملابس أوروبية ووضعنا على رأسه عوضا عن العمامة قبعة أسطوانية عالية، فسيبدو كأستاذ جامعي ذي ملامح قاسية أو كقسيس تزيّنه علامات الوقار.

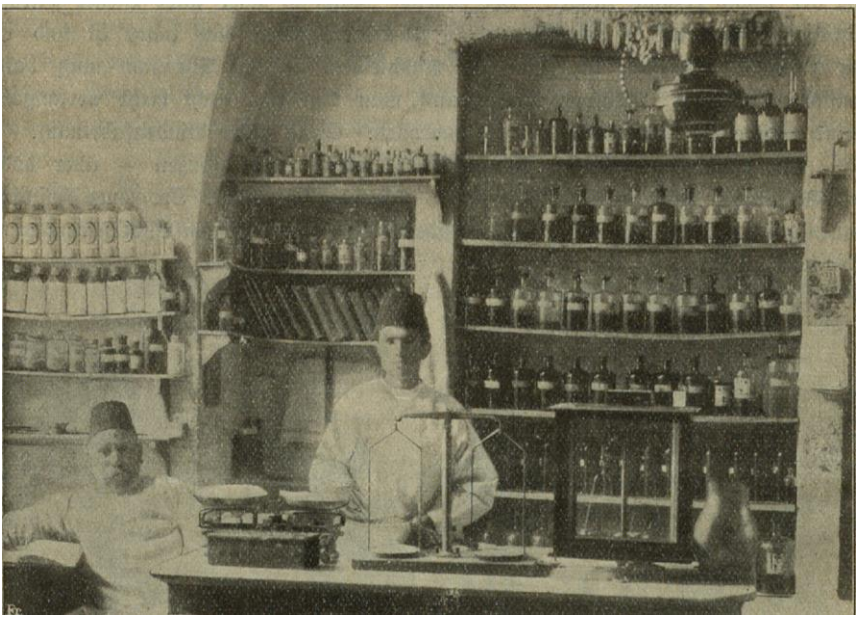

في الصيدلية

إن صيدليتنا عبارة عن غرفة يصعب إظهارها بشكل كامل على صورة فوتوغرافية. وهي بناء يحتوي على قبة. وفي الشتاء تكون رطبة جدا مما يؤدّي إلى فساد بعض الأدوية. ولذلك فهي تطلب مساعدتكم لنقلها إلى مكان أفضل. إن المشفى بحاجة حقا إلى مبنى جديد!

أما الصيدلي أبراهام الذي ما زال منذ تأسيس البعثة التبشرية الطبية أحد موظفينا الأكفاء فقد بدأت علامات الكهولة تظهر عليه خاصة على شعره الذي اعتراه الشيب.

وفي الصيدلية يقف عادة إلى جانبه مساعده الشاطر هوسيب. ولكن الصيدلي أبراهام لا يعمل في الصيدلية فحسب، بل يساعدنا أيضا في غرفة العمليات أيام إجراء العمليات الجراحية كمساعد لا بأس به. لدى أبراهام ثلاثة أبناء بالغين وثلاثة ما زالوا أطفالا. فليُطل الله في عمره رفقا بنا وبعائلته!

لأَنَّكُمْ جَمِيعاً أَبْنَاءُ اللهِ بِالإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ

غلاطية ٣: ٢٦

تَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ.

التكوين ٣:٥

السيرة الذاتية في تواريخ وأرقام

الأحداث التاريخية

٨ أيار ١٨٧١ ولد ياكوب كونتسلر في روتوس في هوندفيل.

١٨٧٢ انتقلت عائلة كونتسلر إلى تويفين.

٣ تشرين الثاني ١٨٧٧ توفّي والد ياكوب كونتسلر.

التحق ياكوب بالمدرسة وعمل كحائك.

١٨٧٨ – ١٨٧٩ عاش كونتسلر عند أقربائه في شتاين وفولف هالدن.

١٨٨٠عاد كونتسلر للعيش مع والدته في تويفين.

١٨٨٢ مرضت أم كونتسلر مرضا شديدا وتوفّيت في ١١ تشرين الأول.

١٨٨٨ تم تثبيت ياكوب كونتسلر كنسيا أثناء عيد الفصح في شتاين.

التحق كونتسلر بتدريب حرفي للنجارة.

ابتداء من صيف ١٨٩١ عمل كونتسلر كنجار في بازل.

١٨٩٣ – ١٨٩٤ التحق كونتسلر ببرنامج إعداد مهني للعمل كشمّاس ممرّض.

١٨٩٥ قيام المجازر ضد الأرمن

عمل كونتسلر كممرض في المشفى الأهلي لبازل.

١٨٩٩ استدعي كونتسلر للعمل كممرض في مشفى أورفة.

١٩٠٣ أسس ياكوب كونتسلر المدرسة البروتستانتينية السريانية.

١٩٠٣ و ١٩٠٩ أمضى كونتسلر إجازته في موطنه في شتاين.

٧ تشرين الثاني ١٩٠٥ تزوّج كونتسلر اليزابيث بيندر.

١٩٠٨ إعلان قيام الدولة القومية التركية، صدور وثيقة حقوق المواطن الأساسية، وإعلان التجنيد العام

١٩٠٩ قيام مجازر أضنة

١٩١٣ تم بناء منزلي الطبيب والشماس في أورفة.

آب ١٩١٤ إعلان الدول الأوروبية العظمى الحرب

تركيا تخوض الحرب إلى جانب ألمانيا

خريف ١٩١٤ رافق ياكوب كونتسلر أميرين فارسيين لرعايتهم صحيا.

نيسان ١٩١٥ أُصيب ياكوب كونتسلر بحمى التيفوئيد.

١٩١٥ – ١٩١٦ عمليات الترحيل والقتل الجماعي واستسلام الأ رمن في أورفة

٣٠ تشرين الأول ١٩١٥ انتحر ليسلي الصديق الحميم لياكوب كونتسلر.

١٩١٥ – ١٩١٨ قدم ياكوب كونتسلر الرعاية الطبية للجنود والمدنيين.

٣٠ تشرين الأول ١٩١٨ توقيع الهدنة

١٩١٩ – ١٩٢٠ أمضت عائلة كونتسلر الإجازة في بازل.

١٩٢٠ عاد ياكوب كونتسلر إلى أورفة.

١٩٢١ – ١٩٢٣ قيام ثورة كمال أتاتورك، المذابح ضد الروم الأورثودوكس والسريان والأكراد

١٩٢١ – ١٩٢٢ نقل كونتسلر حوالي ٨٠٠٠ طفل يتيم إلى سوريا إلى بر الأمان.

١ تشرين الأول ١٩٢٢ إغلاق المشفى في أورفة.

١٩٢٣ تسلّم ياكوب كونتسلر إدارة دار الأيتام في بلدة غزير اللبنانية (إغاثة الشرق الأدنى).

نيسان ١٩٢٣ بُترت ذراع ياكوب كونتسلر اليمنى نتيجة تسمم دموي.

أنشأ كونتسلر ورشة لصناعة السجاد.

١٩٢٥ تم نسج سجادة للبيت الأبيض في واشنطن.

منح الرئيس اللبناني ياكوب كونتسلر وسام الاستحقاق اللبناني.

١٩٣١ قام كونتسلر بتصفية دار الأيتام، وأمضى إجازته في موطنه، كما ألقى مجموعة من المحاضرات.

١٩٣٢ واصل ياكوب كونتسلر الخدمة في بيروت بناء على طلب الجمعية الخيرية «أصدقاء الأرمن» فأنشأ حضانة للأطفال ومطبخا للمعوزين ومركزا للاستشارة الاجتماعية ودارا لإيواء الأرامل الأرمنيات في بيروت. وشارك في مكافحة الملاريا باستخدام سمكة الجامبوزيا.

١٩٣٥ – ١٩٣٦ قام ياكوب كونتسلر الذي لقّب نفسه «المتسوّل المحترف» برحلة إلى الولايات المتحدة الأميريكية لإلقاء المحاضرات وجمع التبرّعات.

١٩٣٨ تم افتتاح المصح الأرمني في بيروت.

١٩٣٨ أمضى كونتسلر إجازة في موطنه في سويسرا.

١٩٣٩ – ١٩٤٥ اندلاع الحرب العالمية الثانية

٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٧ منحت جامعة بازل ياكوب كونتسلر درجة الدكتوراة الفخرية في الطب .

١٥ كانون الثاني ١٩٤٩ توفي ياكوب كونتسلر في غزير في لبنان.

١٧ كانون الثاني ١٩٤٩ دُفن ياكوب كونتسلر في بيروت.

١٧ كانون الثاني ١٩٦٨ توفّيت زوجة ياكوب كونتسلر اليزابيث.

«لقد لفتت قدرة كونتسلر التنظيمية الفذّة نظري في المشفى. وهو إنسان مفعم بالنشاط والحيوية ومتفائل دائما. أحيانا كنت تسمعه وهو يطلق من حنجرته بعض مقطوعات موسيقى اليودل المعروفة في مسقط رأسه إيبنزل، مما كان يدخل البهجة والسرور إلى قلوبنا في هذه البلاد القاحلة والتي نادرا ما تسمع فيها شدو مُغنٍّ.»

الدكتور هيرمان كريست، ٢٣ كانون الأول ١٨٩٩

«ما أقوى تحمّل وأشد صبر السيد كونتسلر على مدى كل تلك الأوقات العصيبة! إنه يتمتّع بأعصاب متينة وروح مبتهجة. ولكن على الرغم من ذلك يبدو أن المصاعب أصبحت عبئا عليه في النهاية. فالأوبئة التي انتشرت بالعدوى واجتاحت مدينتنا لا تُقدّر ولا تُحصى. لا بد أن نقدّم له الدعم بكل ما أوتينا من قوّة وإمكانيات على جميع الصعد.»

كارين جيبه، مجلة الشرق المسيحي، ١٩١٩

«يجب عليكم أن تروا كونتسلر كيف يعتني بأولاده اليتامى ويدير ورشة السجاد. إن المرء ليظن أن الله قد حباه بأربع أذرع وليس بمجرد ذراع واحدة يسرى. أودّ حقا أن أمضي عند كونتسلر عدة أسابيع فمعاشرة مثل هؤلاء الناس لأجمل بكثير من إمعان النظر في أجمل المناظر الطبيعية.»

القسيس الدكتور فيلهلم فيشر، ١٩٢٤

«من أين لك بكل هذه المحبة التي لا تنضب والتي منحتها للتعساء والأيتام والشحاذين؟ كيف استطعت أن تحتفظ ببسمتك أمام كل هذه الآلام والفظائع؟ ما الذي جعلك تصمد؟ هل هو إيمانك الذي لا يتزعزع والذي تمتد جذوره عميقة في قلبك ثابتا كالجبال السويسرية في قلب أوروبا. في وسط كل هذه العذابات كانت عيناك ترى مخلّصنا الذي أوصانا: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِي فَعَلْتُمْ.»

الأب بوغوص آريس، في الجنازة، ١٧ كانون الأول ١٩٤٧

«إذا كان ألبرت شفايتزر رجل العلم فإن ياكوب كونتسلر ذلك الشماس بثوبه الأبيض لهو رجل العزم والتصميم والفعل. وإن أعماله تضعه في مصاف عظماء رجال المحبة في أيامنا هذه. فأين نجد مثل هذا التفاني في العناية بالمرضى والتي كرّس لها كونتسلر حياته بكاملها؟ وأين

نجد مثل هذا التسبيح للمشقة والعناء التي يتكبّلها مسعفو المرضى من خلال تحمّل الدم والصديد والأوساخ والروائح والفضلات والعرق والدموع وعدم الصبر ونكران الجميل والصراخ واليأس بطيب خاطر؟»

باول شوتز، ١٩٦٧

«إن إيمان أبي الراسخ والعميق منحه سعادة كانت تتدفّق منه وتبعث الدفء في نفوس جميع من عرفوه. إيمانه جعله يقف قويا في وجه المخاطر والمآسي التي كان يتقبّلها على أنها مشيئة الله.»

إيدا علم الدين، ١٩٧٠

«إن كونتسلر كونه إنسانا عمليا وموثوقا لَيُكمّل ليبسيوس ذلك الإنسان المندفع المثالي والمؤلف النابغ. كان كونتسلر أيضا كاتبا موهوبا وكانت تكمن موهبته في قدرته على الوصف المباشر للأحداث التي عاشها والتي كانت تتمتع بأهمية تجاوزت نطاق حياته الشخصية. وكإنسان اجتماعي كان كونتسلر على صلة بأشخاص من مختلف الانتماءات الدينية والعرقية فكان لديه أصدقاء بين الأكراد والأتراك والعرب والسريان وطبعا بين الأرمن.»

هانس لوكاس كيزار، ١٩٩٩

«واصل ياكوب كونتسلر وزوجته اليزابيث عملهما في أورفة في جنوب شرق الأناضول في خضم عمليات الإبادة الجماعية واضطرّا أن يشاهدا ببرودة أعصاب كيف يدوس التاريخ المفجع المُسيّر بأحكام المصالح والاستغلال على مبادئهما ومثلهما التي يؤمنان بها ويعيشان من أجلها.»

مانفرد تسوفليه، ١٩٩٩

«إن كتابات كونتسلر موزونة وموجزة ومتعبة القراءة بسبب كل هذه الفواجع والمآسي التي تعدّدها. إن التضحية الشخصية للكاتب لإنقاذ الأرواح في تلك الظروف القاسية ومساعيه لإعادة جمع فلول الأرمن المتبقية بعد المجازر فضلا عن كتابه لهي شهادة وافية له.»

دونالد بلوكسهالم، ٢٠٠٧

جامعة بازل،

عمادة كلية الطب البشري

تمنح درجة الدكتوراة الفخرية في الطب

للسيد ياكوب كونتسلر

المولود في فالتسن هاوزن في أبينزيل، الشماس

إن كونتسلر قام برعاية عدد لا يحصى من المرضى والبائسين على مدى أكثر من خمسة وعشرين عاما مدفوعا بمبادئ المحبة في المسيح وصمد بشجاعة في وجه المآسي الدموية التي لحقت بالشعب الأرمني.

كما قام بعد انتهاء المجازر بنقل الآلاف من الأطفال إلى لبنان إلى بر الأمان. وعمل هناك على أن يوفّر للأصحاء منهم الفرص المناسبة للعمل والاستقلال بذاتهم. أما الضعفاء والمكفوفون فأنشأ لهم دارا لتحتضنهم مدى الحياة.

وقام كونتسلر بتحويل مخيم اللاجئين الواقع في إحدى ضواحي بيروت من حالة مزرية إلى مجمع سكني صحي. وحارب مرضَي الملاريا والسل اللذين كانا يتهدّدان باستمرار سكان ذلك المخيم بنجاح فائق باستخدام طرق مبتكرة وذكية.

كما أنقذ كونتسلر مع زوجته ورفيقة دربه على مدى أكثر من خمسة وأربعين عاما من العمل المتواصل آلافا من الناس من مآس فظيعة وموت محتّم بفضل تفانيه وإخلاصه الدائم، فكان قدوة يحتذى بها ومثالا للإنسانية الخالصة. وقد استحقّ بذلك أن يوضع في مصاف أفضل الأطباء من حيث إنجازاته الطبية.

بازل، ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٧

دَمُ المَسيحِ وبِرُّ يَسوع

وَحْدُهما زينَتي وَشَرَفي المَصون

سَأَلْقى مُتَّشِحا بِهِما رَبَّ المَلَكوت

وَأَنا أَطَأُ فائِزا سَماواتِهِ بِحُبور

مقطع من ترتيلة كانت يرتّلها الحاضرون وكونتسلر يرقد على فراش الموت.

في ٨ أيلول ١٩٢٢ م قتل أكثر من مائة ألف من الآشوريين والأرمن واليونانيين في إزمير.

ما بين عامي ١٩٣٢ – ١٩٥٣ م قتل أكثر من أربعة ملايين ونصف المليون من الفلاحين القولاق في الاتحاد السوفييتي.

ما بين عامي ١٩٣٣ – ١٩٤٥ م قتل أكثر من خمسة ملايين يهودي في مختلف أنحاء أوروبا.

في عام ١٩٣٧ م قتل أكثر من مائتي ألف صيني في مدينة نان يينغ.

ما بين عامي ١٩٥٣ – ١٩٩٨ م قتل أكثر من مليون شخص في كوريا الشمالية.

في عام ١٩٦٥ م قتل أكثر من مائة ألف شخص من «الشيوعيين» في أندونيسيا.

ما بين عامي ١٩٦٦ – ١٩٧٦ م قتل أكثر من خمسمائة ألف من «أعداء الثورة» في الصين.

في عام ١٩٧٢ م قتل أكثر من مائة ألف شخص من الهوتو في بوروندي.

ما بين عامي ١٩٧٥ – ١٩٧٨ م قتل أكثر من مليون وأربعمائة ألف شخص في كمبوديا في جنوب شرق آسيا.

في ١٧ أيلول ١٩٨٢ م قتل أكثر من خمسمائة فلسطيني في مخيمات اللاجئين في صبرا وشاتيلا.

في ٦ نيسان ١٩٩٤ م والأشهر اللاحقة قتل أكثر من ثماني مائة ألف شخص من شعب التوتسي في رواندا.

في تموز ١٩٩٥ م قتل أكثر من سبعة آلاف من البوصنة في مدينة سربرنيتسا في حرب البوسنة والهرسك.

في عام ٢٠٠٤ م قتل أكثر من خمسين ألف شخص في دارفور.

في ٧ كانون الثاني ٢٠١٥ م قتل أكثر من مائة وخمسين شخصا في مدينة بجّا في نيجيريا.

هَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ أَتُوا مِنَ الضِّيقَةِ الْعَظِيمَةِ، وَقَدْ غَسَّلُوا ثِيَابَهُمْ وَبَيَّضُوهَا فِي دَمِ الْحَمَلِ.

رؤيا ٧:١٤

معرض مقام على شرف السيد ياكوب كونتسلر
الذي ولد وتعمّد في بلدة هوندفيل السويسرية
إعداد وتأليف : الأب د. برنارد روطين
ترجمة : د. ناتاليا بشور